

رواية

المحشوق

AHMED BEST






أحمد بيست



- الكتاب: المعشوق
- التدقيق اللغوي: تيماء سعيد
- الإشراف العام: فيصل المشوح
- الردمك: 978-9921-799-13-2

- الناشر: دريم بوك للنشر والتوزيع
- الإخراج الداخلي: مطابع الرسالة

للتواصل مع دار دريم بوك للنشر والتوزيع

  dreambookq8
 dream-book@hotmail.com
 00965 51455511
 www.dardreambookstore.com

 **Dream Book**
 للنشر Publishing

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

أكره المقدمات

وأعلم جيداً أنكم مثلي تكرهونها

لندخل إلى القصة مباشرة

تنويه:

جميع الأحداث والشخصيات الوارد ذكرها في هذه الزاوية هي من وحي الخيال وأي تطابق أو تشابه بين أحداث هذه الزاوية وشخصياتها لا يمت للواقع بصلة.

في قرية هادئة صغيرة تحجبها الجبال الشاهقة عن أشعة الشمس.. وداخل ظلام المقبرة الحالك نظر إلى تلك الجثة المائلة أمامه بعينيه الواسعتين.. إنها ليست كبقية الجثث التي يدفنها.. فهو يعرف صاحبها! يعرفه ويكرهه!

تطفو رائحة الخوف في الظلام.. وتتبعث الروائح النتنة منها.. إنها تخض ذلك العجوز المتعجرف الذي دمّر حياة روان.. واستحق العقاب والمحاكمة.

حفر القبر بنفسه في وقت سابق من ذلك النهار.. وبعد أن ذهب الجميع.. وخلت المقبرة من الأحياء إلاه.. وقف أمام القبر.. وراح ينبش التراب.. حتى بدأت الجثة بالظهور شيئًا فشيئًا.. فاستخرجها.. وعلّقها على عمود الإنارة المطفأ.. وتحت ضوء القمر بدأت المحاكمة والعقاب:

- «لروح روان التي خسرت ضحكها هاك هذه الطعنة.. لروح والدها مكسور الفؤاد هاك هذه الطعنة.. لروح والدتها التي أعيها بكاء طفلتها هاك هذه الطعنة.. لروح أختي زينب التي شهدت مقتل صديقتها الوحيدة وعاقبت روحها هاك هذه وهاك هذه وهذه..» انتهت المحاكمة.

كمن شكل كونا أقل وحشة مما كان.. أخذ نفسًا عميقًا مريحًا وهو يحاول استنشاق رائحة العدالة الحبيسة.. ودون أي اكتراث لما فعل.. حمل جثة العجوز وأعاد دفنها في القبر ذاته.. كأن شيئًا لم يكن.

(1)

تصطبّخُ الطّفولةُ عادةً بالضّحكاتِ الممزوجة بالأحلام والخيال.. لكنّ طفولة مازن لم تكن كذلك.. فقد غلب على أوقاتها البؤس والشقاء بسبب والده الأناني الذي يتلذّد بتعذيب عائلته.. ويحلّ مشاكله بالشجار الذي ينتهي به إلى ضرب من يقف في وجهه.. فاستحوذت على الأمّ خيبتها وضعفها ولم تمتلك يومًا الجرأة لمواجهة بطش زوجها وجبروته.. ولم تستطع يومًا الدّفاع عن نفسها ولا عن أولادها ضدّ هذا الرّجل الذي وجدت نفسها بين أحضانه الشوكيّة وهي لا تزال طفلة.. فبترث طفولتها وضحكتها وحّى أحلامها.. أمّ لم تمتلك يومًا سبل الدّفاع عن نفسها ولا الدّفاع عن أولادها.. تبقى في معظم الأوقات صامتةً وحزينة.. وملامح وجهها باردة برودة مشاعرها.

مازن.. هو الابن البكر.. ومن المعروف أنّ الولد البكر.. يحظى بالحصة الأكبر من دلال واهتمام الوالدين.. فهو ابنهما الأوّل.. إلا أنّ ولادة مازن أو ربّما خبر حمل والدته به كان كارثيًا بالنسبة للوالدين.. الأمّ كانت ما تزال طفلة.. ومن الخطير أن تحمل طفلًا في أحشائها.. أمّا بالنسبة للوالد.. فقد كان خبر حمل زوجته بمثابة الإعلان عن ضرورة التّصرف كرجل وترك المشروب الذي يدمنه.. فهو سيصبح أبًا.. وينبغي أن يتصرّف بشيء من المسؤوليّة.

إلا أنّ هذه الترتيبات لم تنجح.. ولم يقلع الوالد عن المشروب ولا عن ضرب زوجته والثّنكيل بها متى أراد.. ولم تقلع الوالدة الطّفلة بالمقابل.. عن الأحلام لتبقى حبيسةً في شرنقتها.. دون أن تسعى

إلى تغيير حالها التعيس.. أو تحسين حال أطفالها الذين كان مازن أكبرهم.

كان طفلاً صغيراً عندما أدرك أنه لا يملك وقتاً للعب تحت جناح والده.. وأنه لا يعرف سبيلاً للوصول إلى دفء حضن والدته.. الحزن الذي راحت البرودة تجتاحه يوماً بعد يوم.

ويوماً بعد يوم.. عاش مازن طفولةً غير عادية

في سنته الثامنة تحوّل مازن من صورة الطفل التشيط الضحوك الففعم بالحيوية إلى مازن البائس الذي يؤدي واجباته بصمت.

كان ذلك اليوم عصيباً.. استيقظ صباحاً.. فبتسماً كعادته لاستقبال يوم جديد.. قبل والدته في المطبخ وبدأ بتجهيز نفسه للذهاب إلى المدرسة.. وتحضير أغراضه.. وانطلق تاركاً ابتسامة باردة على وجه والدته.. وصل إلى مدرسته وسمع زملاءه في الصف يتهامون.. انضم إليهم بابتسامة لكثهم بدؤوا بالضحك.. أدرك في تلك اللحظة ضعفه.. وعدم قدرته على مواجهتهم.. كما أدرك أن ملابسه التي لم يكثر يوماً بأنها قديمة.. كانت قد وضعت حجر الأساس لشخصيته المهزوزة الخجولة.. عاد إلى والدته باكياً ليرى دموعها وآثار الكدمات على وجهها.. في ذلك اليوم سافرت الضحكات إلى البعيد.. وعرف مازن في تلك اللحظة من يكون.. ومن هو والده ومن والدته ليحمل هم إخوته ووالدته ويبدأ رحلته بصمت.

مرت الأيام بطيئة ومؤلمة.. في كل يوم كان جرح مازن يكبر أكثر.. لم يعد للفرح معنى ولم يعد لهذا الطفل مُتسع من الأمل بالحياة.. كان جلّ طموحه أن ينقضي النهار دون أن يرى دموع والدته.. أو أن

يسمع سخرية زملائه في الصف من شكله وفقره.. أو أصوات معارك والديه بعد أن يشرب والده ليلاً ويسكر.

يتذكر مازن غضب والده.. كيف كان يبدأ.. وأين كان ينتهي.. يتذكر جيّداً كلمات والدته التي لم يحميها حملها الثاني وضعفها من أن تكون متنقّساً لغضبه.. ولدت الأم حمزة.. الذي يصغر مازن بسنتين.. والذي استبشر مازن بولادته خيراً.. وظنّ أنّ حياته ستتغيّر بعد مجيئه.. ظنّ أنّ وجود طفلٍ صغيرٍ بين يديّ والديه قد يبعث السكينة في العائلة.. إلا أنّ حمزة قد انضمّ إلى قافلة البائسين والمستضعفين.. ومعه شقيقته زينب التي جاءت بعده.

(2)

«المجتمع لا يرحم» عبارة اعتادت أمه أن ترددها في كل يوم.. بعد أن اختارت العزلة وغابت عن اللقاءات التي تجمع نسوة الحي.. والتي يتحدثن خلالها عن طرائق الطهي المختلفة.. وعن متاعب الحمل والتربية.. وشؤون منازلهن وأسرهن.. سألها مازن في أحد الأيام: أمي لم لا تذهبين إلى بيت جدي أو إلى بيوت الجيران؟ ربما تجدين الابتسامة الضائعة هناك.

شعرت بالأسف على طفلها الذي يحاول علاج جراحها.. وتخفيف أحزانها: يا بني.. من ذكرتهم هم الذين انتهكوا ابتسامتي.. ورموا بي في هذه العزلة التي أخاف أن أخرج منها.. وأخاف أن أواجههم بما فعلوا.. أنا لا أمتلك الجرأة للمواجهة.. ولو امتلكتها يومًا سأقوم بمحاكمتهم جميعًا.

سأل مازن ببراعة: هل تفهمين بأمور القضاة أمي؟

ابتسمت واحتضنته بغضبة: لا يا بني؛ الحق لا يحتاج إلى قاض.. عندما تكون قويًا.. وتمتلك الجرأة تستطيع أن تأخذ حقك بيدك وألا تسمح لأحد بانتهاك حقوقك.. كن قويًا واكبر يا والدي.. كي تأخذ حقي ممن ظلمني وظلم طفولتك أنت وإخوتك.. اكبر بسرعة بني.

لم تمر كلمات والدته مرور الكرام؛ بل غرس كل حرف في ذهنه.. صار كلما رأى أمه تبكي.. أو عرّضه رفاقه في القرية والمدرسة للسخرية والتعليقات المؤذية.. يتمنى أن يكبر.. وأن يصبح أكر قوة.. أن يكبر ويمتلك الجرأة ليأخذ حقه وحق والدته وإخوته من هذا

المجتمع الذي لا يحترم قيمة الإنسان.

(3)

طالما أرادَ مازن الهروب من تلك الضففاتِ الفتتالية.. كانَ لا بدَّ من وجودِ بديلٍ عن جدرانِ أبتْ أنْ تُدخِلَ في قلبه السكينة.. ففي ذلك النهار لم يستطع سماعَ صراخِ والده.. كانَ الضجيجُ عالٍ وعينا والده تقدحانِ شرًّا.. لم يُحاول التفكيرِ بأسبابِ تلك المُشكلة فكلَّ ما أرادَه في تلك اللحظة أنْ ينطفئَ صوتُ والده وما أحدثه من ضجيج.. خرجَ باحثًا عن مكانٍ لا يصل إليه ذلك الصوت.. لم يكن أمامه سوى باب الكوخ المهجور.. نعم كوخ الأعلاف في الحظيرة القديمة.. دخلَ وأغلق البابَ خلفه واستلقى على كومةِ الثبن وسط الكوخ فاتحًا ذراعيه.. كان صدره يضجُّ بنبضاتٍ قلبه الفتسارعة.. أخذَ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه ليُتيح لجسده فرصةً للراحة.. ليبدأ الثوم بالتسلسل إلى جسده.. كانت هذه ليلته الأولى التي يقضيها في الكوخ المهجور.

مدَّت يدها لثلامس خذه البارد برودةً قلبه.. كانت يدها دافئةً وناعمة كالحرير الذي يسمع عنه.. تسَلَّت يدها إلى كتفه مُحاولَةً إيقاظه.. لكنَّ جسده أبى أنْ يستجيب؛ وبكلِّ حنانٍ ورُعتْ أعوادُ الأعلافِ المتناثرة في المكان على جسده.. احتضنته وانتظرتْ توژد خذيه وانصرفت.

استيقظ مازن بابتسامةٍ لم يُدرك مصدرها.. كانَ جسده مكسوءًا بأعواد الأعلاف.. نعر تلك الأعواد يمينًا وشمالًا ونهضَ مُسرعًا إلى بيته.. وعندما رأى والدته في الصالة اطمأنَّ قلبه.. ابتسامتها تدفعه دومًا إلى الصبر والسكوت.. قبلها ودخلَ غرفته.. استلقى على سريره القطني ليستعيد دفءَ ليلته تلك.

بدأ مازن يشعر بالمسؤولية عندما طالت الهمسات والسخرية طفولة شقيقته الصغرى زينب.. كانت صغيرة مفعمة بالحيوية.. لم يكن بمقدور أحد إضحاك الوالدة كما تفعل زينب بحركاتها وضحكاتهما التي ملأت البيت.. لم تكن زينب ثبالي بغضب والدها وتهكمه وضراخه.. فقد كانت تجذ لنفسها زاوية بين أثاث المنزل لتعيش طفولتها هناك في عالم من الخيال.. بقيت هكذا إلى أن طالتها التعليقات الساخرة من أترابها.. والتي أزال القناع الوهمي عن وجهها لتجد نفسها في منزل يسوده الصراخ والحزن والبكاء والفقر.. منزل حاولت تلوين جدرانه الكالحة بضحكاتها زاهية الألوان.. وتوسيع جدرانه التي تضيق على روح الأسرة.. لكن تنقر المجتمع قد فعل فعلته وصفعها صفة الحقيقة لثدرك أن شقيقها مازن هو الملجأ الوحيد.. وأن حمزة هو صديق الضحكات وأن والدتها المحزونة دوما لا تستطيع إعطاءها الأمان.. ووالدها يزرع في قلبها الخوف لتكبر ويكبر خوفها منه ومن كل الناس غيره.. وخوف أعظم من أن تكون في يوم قادم نسخة عن والدتها التي كانت ضحية.

ربما تهجرنا الابتسامة لسبب ما.. وإنها إذا ما تأخرت في العودة فهي لن تعود كما كانت حتما.. عندما هجرت الابتسامة وجه والدته كان على يقين من قدرته على رسم ألف ابتسامة على وجهها.. إلا أن محاولاته جميعها باءت بالفشل ومثلها فشلت محاولات حمزة وزينب إلى أن خفت ضحكائهم وانطفأ بريق الطفولة من وجوههم ليصبحوا نسخة عن والدتهم في الخنوع والخضوع لظروفهم والبيئة المحيطة.. كان جرح الأم كبيرا.. ورغم محاولاتها الكثيرة لم تستطع التغلب على جبروت زوجها وقسوته.. كما لم يتمكن هو بالقابل أن

ينال رضاها.. بقي خوفها منه ملازمًا لها.. وهو في نظرها ذاك الرجل الذي يطعن براءتها في كل لحظة.. وبقيث في نظره هي تلك المرأة الضامته التي تزوجها لإرضاء رجولته الطائشة.

عاش مازن وحمزة وزينب في هذا الجو الكئيب الذي طغت عليه نوبات الغضب والصراخ والمعارك التي تتطور دومًا لتصل إلى الضرب فتترك أثرها كدمات تلون وجوههم.. وآمالًا مسحوقًا تنهك أرواحهم الغضة التي تحاول الخلاص دون جدوى.. كبر مازن وكبر معه شعوره بالمسؤولية عن كل ما يحدث.. كان يظن أنه مذنّب.. وأن نقصه.. وضعفه وفشله هي الأسباب التي تسبب غضب والده.. وتعاسة أمه.. وما ينتج عن ذلك من مشاكل تواجه أخويه.

انكفأ بعيدًا عن الناس.. يهزمه الذنب.. ولم يرغب في التعلق بأحد كيلا يسبب له العذاب.. كما أنه لم يكن يرغب أن يشعر بالخذلان.. ذاك الشعور الذي طالما عرفه وشعر به.

اتخذ من الكوخ المهجور مسكنه.. فبات كل ليلة يزور كوخه ليعطي جسده وعقله وروحه فرصة للراحة والسكينة.

يستيقظ على رائحة عطرة وزجاجة من الماء تنتظره.. في البداية كانت تساؤلاته تنهكه.. ثرى من الذي أحضر كل هذا؟ ولكنه اعتاد على تلك الرائحة.. ومع الوقت كان يفتح جفنيه ويلتفت إلى الجهة ذاتها ليشرب من الزجاجه.. يأخذ نفسًا عميقًا ليملا روحه من تلك الرائحة العبقة التي رافقته في الحلم.

كانت ثراقبه كل ليلة وتتمنى احتضانه.. ها هو الحب يطرق بابها وما عليها إلا أن تلبّي نداءه.. في تلك الليلة التي أدركت فيها ذلك؛

قررت أن تكونَ ضيفتهُ في المنام.. انتظرتُ قليلاً ليستغرق في نومه
وتسللتُ إلى حلمه المشوّش.. فتاةٌ عشرينيّةٌ جميلةٌ ترتدي فستاناً
أبيض يشعُ نوراً.. ملامحها غير واضحة ولكن صوتها واضحٌ جداً..
نبرةٌ حنونّةٌ توقظه من نومه مع بزوغ الفجر:

- صباح الخير.

صوتٌ دافئٌ أيقظه هذه المرّة.. فتح جفنيه وتنهّد كمَن يرى ملاذّة
أول مرّة.. ابتسمَ وردّ السلام لتبدأ معه الحكاية.

(4)

كبر مازن وخاض مرحلة البلوغ لتبدأ معها مُشكلاته التي ترافقت مع تطوّر علاقته بكوخه المهجور.. فصار يهرب من تلك المُشكلات تاركًا وراءه ضجيح عائلته فيغلق باب كوخه وينام.

صار يردّد في نفسه عبارات مثل: «لا أحد يحبني.. ولا أحد يهتم بي.. لا أريد أن أكون عالّة على أحد.. لا أريد أن أسبب الألم أو الأذى لأحد..» وهكذا أقحمه الواقع في دوامة من المسؤوليات والهموم التي وقفت عائقًا أمام تطوّر مشاعره تجاه أحد.. وحتى روان..

كانت روان من أراد وتمنى.. كانت زهرة أحلامه وقمة طموحه.. ففي الحلم السعيد أن يلتقي شخصًا ما يهتم لأمره.. وروان فاتنة ولطيفة.. لا تسخر منه على خلاف البقية.. ولا تضحك من مظهره البائس وملابسه المهترئة.

حاول مرّة الاقتراب وإلقاء التحيّة في ساحة المدرسة إلا أن صوت الضحكات قد أربكه.. ربّما لم تكن ضحكات تخصّه.. ولا تعليقات تمسه إلا أن أصوات الفرح تُثعب روحه.. مع أنّه كان مُتعطّشًا لرؤية ابتسامة حيّة تنمو من بين صخور منزله.. يخاف من الفرح.. ويحتاج إلى الفرح.. مُفارقة كبيرة ضاعت طفولته وهو يُحاول ضبط أبعادها والتعايش معها ومع غيرها من المُفارقات؛ غضب والده وهيمنته من جهة.. ضعف أمه وبكاؤها الذي يزعج صمت الليل.. مسؤوليته نحو حمزة وزينب اللذين يرتميان في حضنه بعد التعرّض لكلّ إساءة.

لكن أفكاره كانت تدور حول روان.. وحياته كذلك.

يستيقظ في الصباح على وقع اسمها.. يُحاول البحث عن شيء مُبهج في هذا السواد الذي يعيشه.. لم تكن روان فتاة عادية بل كانت صديقةً لزَيْنَب.. أن تكون صديقةً لزَيْنَب ليس بالأمر العادي.. فزَيْنَب تعاني من الشك الكبير والعزلة والخوف من الآخرين.. زرعت والدتها في قلبها الصغير أشواك الحذر كنصائح تحميها من الأذى.. وأصبحت زَيْنَب فريسةً لشكوكها ومخاوفها.. تطبق نصائح أمها وتكتسب شيئًا فشيئًا ملامح وجهها الجامدة.. وبرودة مشاعرها.

خطفت روان قلب زَيْنَب.. وأسعدتها.. كانت طاقة لا تنتهي من الضحك والسعادة.. ولم تخضع لحكم الأغلبية في الصف والمدرسة والحي.. فنالت حُصتها من التنمر الذي سببه تعاطفها مع هذه الفتاة الفقيرة.. ابنة السكّير.

توطدت علاقة زَيْنَب وروان وصارتا تمضيان جل أوقاتها معًا.. وكأث لهما أسرارهما الصغيرة.. وشقاواتهما اللطيفة.. وكان مازن يراقب مستمتعًا.. يطرق على باب قلبه شعور لم يسبق له أن عرف مثله.

التقى روان في ساحة المدرسة الثانوية عندما كان لوقع ضحكتها ذلك الأثر المفقود في حياته.. الذي حاول أن يجده عند والدته ورازا.. أيقظت ضحكتها مشاعره بعد ثبات عاشه لسنوات.. لم يمتلك مازن الجرأة ليتقدم ويلقي التّحية.. خشي أن يسبب لها الألم.. وأراد فقط أن يحتفظ بصورة روان الفتاة الحيوية المرحّة المُسالمة الصديقة.. هل كان أنانيًا عندما خاف أن يتقدم ويغير تلك الصورة التي رسمها في خياله.. لم تكن ثقته بنفسه كبيرة.. إذ إنّه لم يحظ بحليف طفولة

يعزّز إحساسه بقيمته.. لا أمه استطاعت ولا والده كان مهتمًا.. ولم يشعر ببريق الطفولة كما قرأ عنه.. ولم يشعر بحلاوة احتضان الوالدين لأنه لم يعيش ذلك يومًا.. وكان يشعر بأنه وأخويه عبء على الوالد.. وأن والدته ستكون أفضل حالًا لو لم تتزوج وتنجب.. إذ ربطها الإنجاب بهذا الرجل السيء.. فلم تتمكن من الخلاص.

أخفى إعجابه بروان بين ضلوعه دون أن يبوح به لأحد.. وهو لا يملك صديقًا يستمع لبوحه بالأصل! من سيكثرث لآلامه وهمومه؟ لا أحد.. لا أحد.

كان على قناعة بأن أحدًا لا يكثرث له ولا لمشاعره.. وأنه غير قادرٍ على منح ثقته لأي أحد.. ما خلا حمزة وزينب.. الذين يحبهما كثيرًا.. ولا يرغب أن يشغلهما بمشاعره.. وخشي أن تتأثر علاقة زينب بصديقتها الوحيدة إذا أبدى شيئًا من مشاعره.. أو أزعج روان.

كتم حبه سنواتٍ إلى أن أنهى المرحلة الثانوية وابتعد عن المدرسة.. أراد أن يدرس في كلية الطب والتشريح.. ولم يكن هذا القرار ملك يمينه؛ بل كبده صراعات دامية مع والده الذي رفض فكرة الدراسة الجامعية من أساسها.. وكان يريد أن يدفع بابنه إلى سوق العمل.. وأن يستفيد من عمله في تأمين مصروف المنزل وسداد الديون التي تتراكم بفعل إدمانه على المشروب.

شعر مازن بعد نجاحه في الشهادة الثانوية أنه أقوى.. واستطاع أن يجبر والده على الرضوخ.. ربما تملك الوالد شعور الضعف بسبب العمر.. فاستسلم في النهاية سامحًا لمازن أن ينفذ قراره بالدراسة.. وكان اختيار هذا الشخص نابعًا من رغبة مازن.. لم يترك غياب

روان عن ناظريه أثرًا كبيرًا بسبب انشغاله بأمور الجامعة ومحاولاته
الدؤوبة لإيجاد مجتمعٍ مُصغّرٍ لا يعرفه فيه أحد.. كي يبدأ الحياة
من جديد.. وكان له ذلك بالفعل.. فتحوّلت أيامه به إلى دربٍ جديد..
يصحو في الصباح ويتناول إفطاره متعجلاً الخروج من بيته الذي
يشبه القبر.. بل أسوأ من ذلك.. لأنّه فيه وهو حي.. يتألم وهو بكامل
وعيه.. وعندما يصل إلى بوابة الكلية يصبح مخلوقًا آخر.. فينسى
والديه.. وكآبة وجوه أفراد أسرته.. ويرسم ابتسامةً يحاول جاهداً أن
تبدو طبيعياً.. ليندمج في تجمّعات الطلبة.. ويصبح إنساناً جديداً..
وفي الليل يلجأ إلى كوخه المهجور ليلقى حلمه ويحكي ما أراد دون
خوفٍ أو وجل.

تطوّرت علاقته بفتاة الحلم دون أن يرى ملامح وجهها.. أو ربّما
وضع ملامح روان عليه.. لم يسأل عن اسمها أو من أين جاءت..
فأصوات ضحكاتها تصدّخ في عتمة ذلك الكوخ.. يستيقظ كل
صباحٍ نشيطاً مُفعماً بالحيوية ليبدأ نهاره على أملٍ جديد.. فيعود في
المساءً جازاً أذيال خيبته من الحياة باحثاً عن فتاته التي يحلم بها.

وفي مكانٍ آخر من هذا العالم كانت نظرات الغضب ترتسم على
وجه والدها ملك الجان.. كيف لا وابنته ترغب بالزواج من إنسي..
غضب عليها وحجز حزبتها وقتل أملها في أن تكون مع حبيبها.

في تلك الليلة دخل مازن كوخه واستلقى كما العادة مُنتظراً
محبوبته.. هذه المرة لم تأت.. استيقظ صباحاً مُضطرباً لعدم
قدومها.. مضت أيامٌ عدّة ولم تأت في حلمه.. بدأ القلق يسيطر عليه
والعزلة تأكل روحه.. بات غاضباً مُضطرباً وأخذت ملامحه تشبه

ملاحم والده القاسية وهذا كان يُثير غضبه أكثر.. فیدخل كوخه
ويُلقي بجسده على القش ويبكي بحرقۃ على ما حل به.

في عالم الجن كانث نائمة تبكي على فراق محبوبها.. تلك الشعراء
كانث مُتيمۃ بـمازن.. فقررت الهرب إليه.. استحضرت قواها وتسَلَّث
إلى حلم مازن:

- مساء الخير.

- آه.. أين كنتِ.. لِمَ هذا البعد؟

- عِلْم والدي بعلاقتنا فمنعني من القدوم إليك.

- حتّى في عالم الأحلام يمارس الأب سلطته؟!

- إنا لسث حلقا.. أنا شعراء من عالم الجن وفي عالمنا لا يمكن أن
أتزوّج من إنسان.

كسا الذهول ملاحم مازن.. لم يكن يعلم أنّ ما يراه حقيقة.. صدمته
كانت كبيرة فاستدركت الموقف وأضافت:

- ما رأيك أن نتزوّج دون أن تعلم قبيلتي بالأمر.. آتي إليك كل ليلة
وأعود.

- مستحيل.. لا يمكن أن أتزوّج جنّية شعراء مع كل الحب الذي
يسكن قلبي.. ولكن هذا محض من الخيال.. ولو كنت أعلم أنّك من
الجنّ لَمَا أحببتك.

كسر قلبها بكلماته تلك دون أن يسأل عن جراحها.. في تلك اللحظة
ما كان منها سوى أن تطلب طلبها الأخير مُحاولۃ احتواء ما قاله:

- هل ستأتي معي وتطلب يدي من والدي للزواج؟

كانَ فضوله لاستكشاف عالم الجنِّ هو ما دفعه للجواب.. فطالما سمعَ بهذا العالم وخفاياه ولكن الآن حانَ الوقت لمعرفة الحقيقة ورؤيته:

- وكيف هذا؟ كيف سأصل إلى عالمكم؟

أثار بسؤاله ابتسامة خجولة على وجهها.. ظنَّت أنه غير رآيه في الزواج منها.. فأجابث والفرخ ينتفض من جسدها:

- لا بأس.. إن كنت موافقًا سأخذك بلمح البصر وأعيدك.. لا تقلق.. موطن قبيلتي فوق ذاك الجبل الشاهق الذي يكسوه الضباب.

- إذا هيا بنا.

أمسكت يده وطلبت منه أن يُغمض عينيه.. شعر بجسده يطير فوق السحاب.. كان خفيًا جدًا.. وعندما لامست قدماه الثراب طلبت منه أن يفتح عينيه.

ضباب كثيف يملأ المكان.. البيوت مطلية باللون الأسود.. وجثث مرمية في كل مكان.. هذا المكان لا يُشبه محبوبته.. هياكل متناثرة هنا وهناك.. ومداخل المنازل يتدفق منها الدخان الأسود.. وجوه المازة غريب.. ينظرون إليه كمّن سرق منهم جنيتهم.. جميعهم يعلم أنه من البشر وهذا ما أثار الدعر في نفسه.. كانت الخطوات متباطئة.. شكل الأشجار غريب فلا يكسوها إلا السواء.. لا أوراق ولا ثمار.. أغصان سوداء يقبع فوقها عش لطائر أسود اللون ينظر إلى مازن بوقاحة دون خوف.. كان قلب مازن يرتجف خوفًا وقلبها هي

يرقص من الفرح والأمل.

دخلا قصر والدها الذي كان في منصب الملك.. لم يستغرق الأمر
كثيراً حتى صرخ والدها رافضاً مُقابِلته ومُهدداً إيّاه.. كان صراخه
كزئير أسد وسط غابته.. ارتعش قلب مازن وبلحظة خرج من القصر
ليصطدم بعالم الجن.. اجتمع سكان القبيلة على صوت سيدهم..
ها قد طوّقوا المكان بوجوههم المُكفّهزة.. ملامحهم تُنذر بأن نهاية
الحكاية ستكون الآن.. لا مكان للحب هنا كما لا مكان للبشر.. انتظر
مازن ليستجمع قواه وأفكاره.. أراد الهروب ولكن الطريق مسدود
أمامه.. شعر بدفع يدها تُداعب يده.. التفت خلفه ليرى وجهها
الشاحب مع ابتسامة تكاذ تنطفئ.. قالت:

- لا عليك.. سأخذك إلى الكوخ الآن.. لا تقلق.. أمسك يدي وأغمض
عينيك عن عالمي هذا.

بلحظة واحدة انتهى كل شيء.. ودعت محبوبها وانصرفت تاركة
إيّاه في حيرة ودُعر.. بقي مازن مدة طويلة دون أن يكلم ذويه..
أراد انتشالها من فؤاده ونسيان ما حصل.. كان يرتأذ ذاك الجبل من
وقت لآخر مُحاولاً الوصول ورؤيتها دون جدوى.. بات أهل المنطقة
ينعتونه بالمجنون.. يحاول تسلق الجبل فيسقط مرة بعد مرة إلى أن
قرر العودة إلى عالمه ولكن دون روح.

(5)

عاش مازن في عالمه المصفى.. يرتاد الجامعة ويحاول أن يبني ما يستطيع من شخصيته.. وفي البيت راح يشعر بتغير واضح في الأجواء المعتادة.. بدأ هذا التغير خفيًا غير ملموس.. لكنه أصبح جليًا وغير خاف على أحد.. فضربات والده لم تعد موجهة.. حتى أن غضبه أصبح أخف.. والمعارك التي كانت تنشب بين والديه لم تعد تنتهي بالكثير من الدماء والكدمات على جسد أمه كما كانت في السابق.. ما الذي تغير؟ تصارعت الأفكار في رأس مازن إلى أن أدرك أن وجه والده لم يعد يُخيف.. وأن هذا التغير ينبغي أن يُعرض على الطبيب.

لم يرضخ والد مازن يومًا لقرارات أحد.. كان يفرض ما يريده من قرارات.. لكنه اليوم لم يغذ كالأمس.. حتى وهو لا يزال شريدًا سكيّرًا بقلب أسود وروح مريضة.. إنه يضعف شيئًا فشيئًا.. ويشعر أن شيئًا ما لا يسير كما ينبغي.. شيئًا في جوفه يحترق كلما شرب.. ويستمر احتراقه ساعات طوال.. شعر بالخوف على نفسه.. على هيبته وجبروته ولم يجد بدا من أن يسلم أمره لولده البكر.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينصاغ فيها لقرار يصدر عن ابنه.. إذا استثنينا قرار دخوله إلى الجامعة والذي تصارعا لأجله أيامًا.. ولم يرض الوالد به حتى الآن.

أخذ مازن والده إلى عيادة الطبيب العام الموجودة في نهاية القرية المجاورة.. حولهما الطبيب مباشرة إلى المستشفى لإجراء الفحوصات والتحاليل.. وفي غرفة الانتظار بينما كان الطبيب

يتفحص الصور الشعاعية.. ويجس جسده المريض باهتمام خلف ستار المعاينة الأزرق.. بدأت مشاعر العتب على والد لم يكن يومًا أبًا.. عتب على كل دمة تسبب بها لوالدته.. وله ولأخويه.. وحسرة على الأيام والسنوات التي عاشوا فيها في ظل الخوف بسببه.. وغصة على هذا الرجل الذي أعياه المرض ليظهر أخيرًا بصورة الضعيف المهزوم المنكوب.. رجل اختار البطش ليعبر عن ذاته وها هو الآن يسترد ما قدمته يده للحياة التي حرم زوجته وأولاده من الاستمتاع بها.

استيقظت الكثير من الأسئلة في عقل مازن.. كم أراد أن يطرحها على والده مزار ومزارات.. كان يلوكها بأسنانه.. ويبتلعها.. ويحتفظ بها في بطنه.. ثم يجترها.. لم يمتلك في يوم من الأيام الجرأة ليقذفها في وجه والده.. وفي أذنيه حتى يرتاح منها.. كانت هذه الأسئلة غصته.. بركان جوفه وبؤس كوابيسه.

هذا الوقت ليس مناسبًا للأسئلة.. وقد انتهى وقت العتب.. هجرت المحبة قلب مازن واستحوذ الحقد والبغض على فؤاده.. كان يتمنى أن يخرج الطبيب من غرفة المعاينة.. وأن يبشّره بضعف لا أمل بعده لهذا الرجل.. تكثفت آمانياته ودارت حول هذه الفكرة.. تحركت قوة عقله.. تصوّرت مشهدًا متكامل العناصر: يخرج الطبيب بالفعل.. ينظر إلى عيني مازن دون أن يُبدي أي شعور.. يقول دون مقدمات: سيموت قريبًا.. سيموت قريبًا.. هل يموت قريبًا؟

وكان هذا ما حدث بالفعل! كأن أبواب السماء مفتوحة على آخرها.. ها قد خرج الطبيب وأخبره بمرض والده واستحالة شفائه.. ها قد

ضحكت الدنيا لمازن وإخوته ووالدته.. ها قد بدأت نسمات الخلاص
بالهبوب سراغًا.. وها هو الأمل.. الأمل يعود.

شكر مازن الطبيب مسرورًا وأمسك بيد والده الذي انهار لسماع
خبر مرضه.. خرجا من المستشفى وسارا في الدرب نفسه.. لكن كلاً
منهما كان يعيش تجربة مختلفة.

ينمو شوق مازن للخلاص مع كل خطوة.. ويزداد أمله ببداية
مشرقة تزيّن ضحكات والدته وإخوته.. بالمقابل كان ينمو الخوف
في قلب والده؛ الذي أدرك في هذه اللحظة حجم الدمار الذي خلفه
في قلوب أفراد أسرته.. والمشاعر المكبوتة ضده.. عندما وصلا إلى
المنزل.. نقل مازن بنظرة مع ابتسامة خفية لوالدته بشرى اقتراب
الخلاص.. وبشرها بإنصاف القدر أخيرًا لدموعها وآهاتها.. وبشر
حمزة وزينب بالبداية الجديدة التي لاحت في الأفق.. حملت تلك
النظرة ألف لون على فرح يلوح في عيونهم؛ والدته وحمزة وزينب
جميعهم كانوا في الانتظار.

أدخل مازن والده إلى سريره الذي وضعه أمام باب الدار.. كان
يرغب أن يكشف جميع تحركاتهم على الدوام.. ويُشعرهم بالخوف
منه كلما أراد أحدهم أن يخرج أو يدخل.. وأن يطلب الإذن بذلك.. ها
هو الآن مُنهك مريض ينتظر الموت.

قال مازن دون أن يُخفي ارتياحه:

«إنّه المشروب الذي كان سرّ عذابنا.. ها قد أخذ لنا حقنا.. وكنا
نكرهه فأصبح سبب فرحنا الآتي.. وطالما امتعضنا منه.. فوعدنا
بالخلاص..

غادر مازن المنزل تاركًا علامات الغبطة والسرور تلوح على وجوه أفراد الأسرة.. مع الكثير من الحياء من هذه المشاعر.. كان يتمنى مثلهم أن يحظى بوالد طبيعي.. كي يأسف على مرضه.. ويبكي يوم رحيله.. لكنه لم يكن والدًا طبيعيًا.. ولم يرثه ليكون ابنًا طبيعيًا.. خرج هائلاً على وجهه.. لا يعرف إلى أين يذهب.. حتى وصل إلى قمة قريبة.. بعدها وبدأ يطلق صرخات متتالية.. تارةً يبكي وتارةً يضحك بصخب.. يعوي كذئب سعيد مرّة.. ويزأر مثل أسد محتضر مرّة أخرى.

استمرّ بالصراخ كي يُخرج ما أخفاه طوال حياته.. وبعد أن أنهى ما في جعبته من صرخات وضحكات ودموع وعاد إلى منزله ليقوم بواجبه تجاه والده المريض وهو يستلذّ بضعفه وانهيائه.

(6)

لم يتأخر الموت عن والد مازن.. وتلت الموت أيام العزاء.. عزاء! أسعد به من عزاء!

كانت نظرات نسوة القرية تحمل من الفُباركات ما تحمله لوالدة مازن بينما يقدمن لها التعازي.. حتى قالت إحداهن صراحة: «الآن تستطيعين التنفّس والعيش بهناء يا أمّ مازن» كنّ جميعهن مُدركات لعذاب أمّ مازن.. التي لم تتمكّن بعد أوّل صفقة تلقّتها من زوجها من زيارة أحد يومًا.. وكان سبب الصفقة خروجها من المنزل دون إذن منه.

انتهت أيام العزاء وبدأت الحياة تبتسم لمازن أو ربّما هذا ما كان يتخيّله.. فلا حلو بلا مرّ.. ولا بداية بدون تركة.. ونهاية والده لم تكن نهايةً للآلام جميعها.. إنّما حملت بدايةً لأعباء من نوع آخر لم يألّفها مازن.. فكان لا بدّ له من أن يبحث عن عملٍ يستطيع من خلاله سدّ حاجات المنزل ومصاريف حمزة وزينب.. وديون والده التي تتراكم مع الفوائد.. وهكذا بدأت رحلة البحث.

(7)

لم يكن إيجاد عمل أمرًا سهلًا.. فمازن يحمل شخصية مهزوزة وروحًا منهكة وجعبة فارغة من القدرات والمهارات.. لم يصرف والده قرشًا لصالح بناء شخصية ابنه.. ولا على إكسابه أي مهنة أو مهارة تساعد في إيجاد العمل.. لم يستطع إقناع والده يومًا بصرف المال على أي شيء.. بل كانت نقوده كلها مرصودة للحصول على زجاجة المشروب.. مات والده ولم يترك لهم إلا السمعة السيئة.. وبعض الديون الفتناثرة هنا وهناك.. والتي تتراكم بفل الفوائد.

لا بد إذن من إيجاد عمل.. ينبغي أن يكون عملاً بدوام جزئي حتى لا يتضارب مع محاضراته الجامعية التي أصبحت أجمل ما يحدث في أيامه.. ويشعر بفضلها أنه إنسانٌ جديرٌ بالحياة.

عانى مع مكاتب التشغيل والمحال التجارية التي لجأ إليها دون جدوى باحثًا عن العمل.. أصبح الحصول على العمل ضرورةً أشد إلحاحًا لسد حاجات الأسرة.. والتخلص من الدائنين.. بحث طويلاً بلا نتيجة.. أصبح البحث والفشل المتكرر تجربةً قاسيةً تسببت في إحباطه.

كانت أمه تقول له: «لا تكن عجولاً ولا تيأس.. الصبر يا بني منجاة.. وهو السبيل الوحيد لمن هم في مثل حالنا.. ها نحن صابرون معك.. ولن نثقل عليك» وكان يستمد من كلماتها طاقته.. ويُعاود المحاولة دون أن يكل أو يقنط من تكرار الفشل واثقًا بأنه سيجد مُبتغاه.. لكنه تلقى صدمةً جديدةً عندما جاءه خبر خطوبة روان.. محبوبته اللطيفة روان.. ونزل مثل الضاعقة على روحه.. فصرخ بصوت

مكتوم: « أيها القدر لماذا تفعل هذا بي! »

انتابه اليأس من جديد.. ولبث في سريره أيامًا طوَالًا.. إلى أن جاءت أخته زينب تسأله إعطاءها بعض المال كي تستطيع الذهاب في نزهتها الأخيرة مع روان قبل أن تتزوج.. وفي هذه اللحظة أدرك مازن ضرورة التهوض.. من أجل زينب التي مازالت في عمر الورد ولا ذنب لها في كل ما يحدث.. ومن أجل حمزة الذي كابد معه في سنوات الطفولة الحزينة.. وahan الآن الوقت ليستعيد حياته.. ومن أجل الأم.. المرأة التي تريد أن تبسم أخيرًا وتطمئن على أولادها.. توجه إلى الحمام.. فتح صنوبر الماء ووقف دقيقة.. خطر له أفكار عذة على صوت تدفق الماء.. وفي النهاية أيقن ضرورة ترك الجامعة ليزيد فرص حصوله على عمل.. الآن ينتصر الوالد بعد موته ويتسبب بترك مازن للجامعة.. أرخى جسده لعل الماء يغسل البؤس المتبقي من ذكرياته البعيدة والقريبة.. التي تُنذره في كل مرة يُحاول أن يبتسم فيها بأنه ابن ذلك السكر المتعجرف الذي لم يزرع المحبة ولم يحصد الاحترام بين الناس.. هذا السر وراء ما كان يواجهه في كل وظيفة يتقدم إليها.. السمعة السيئة لوالده والحكم المسبق عليه بأنه مثله.. فمن شابه أباه ما ظلم.. والوالد كان سكيّرًا.. متعظلاً كثير الشكوى.. قليل الخير.. وكان لا يستقر في مهنة أو مصلحة.. وقد ضيع كل ما كان يملكه لإيفاء الديون وشراء المشروب الذي قتله في النهاية.

لن يكون من السهل على الابن إقناع الناس بأنه مُختلف عن والده أو حتى غير راض عن تصرفاته.

ولن يكون من السهل في الوقت نفسه أن يمضي في الدنيا دون أن يساعده أحد.. وهو في عمره اللّين.. في أشد الحاجة للدعم ليعبر الدرب الصعب.. وينجو بنفسه وبأسرته.

حمل مازن العبء كله فوق كتفيه.. وقّرر أن يعوّض أخويه عن الأب الغائب الذي كانوا يحلمون به.. ويعوّض أمه عن سند لم تعرفه.. ورجل لم يشعر بها.. عليه أن يضحي بأعلى ما عنده.. وهي الجامعة.. متنفسه الذي يشعر من خلاله بكيانه وقيّمته.. فليكن هذا إذن.. هذا قدره وهو ملزم به.

(8)

واجهت مازن الكثير من المشكلات أثناء محاولته الوقوف على قدميه.. وكان يحاول.. ويعود في كل مرة منها مكسور الجناح.. لم يبق أمامه خيار وعليه أن يقبل بأي وظيفة تمكنه من تأدية واجباته تجاه أسرته التي تشكو من العوز.. ارتدى ملابسه صباحا ومضى متجها إلى المدينة تحديدا لساحة العقال.. نعم ساحة العقال! لم يفكر بها قبل الآن.. يأتي إلى الساحة هذه أشخاص يحتاجون عقالا.. وقد يطلبه شخص ما للعمل.. لا يعرفه أحد في الساحة ولن تلقي سمعة أبيه السيئة بظلال الحظ العائر عليه.. المطلوب منه فقط أن يقوم بعمله بصمت وإتقان.. ليفتح بابا للرزق الذي تأخر.

وصل إلى ساحة العقال يرجو خيرا.. تفحص الرجال المجتمعون هناك هذا الزائر الجديد.. رمقوه بنظرات الاستغراب والفضول.. من هذا العامل المسكين؟ ما العمل الذي يرجو الحصول عليه بهذا الجسد الهزيل والبنية الضعيفة؟

توسعت عينا مازن بحثا عن أمل.. وألقت له الأقدار طعما.. ففي خضم الضخب الذي يجتاح أفكاره وصل إلى مسمعه صوت ثامر.. الرجل الطيب الذي يوزع الأدوار بين العقال.. سأله:

- من أنت بُني؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ لا يبدو بأثك قد عملت من قبل.

قال مازن مترددا:

- أصبت أيها العم.. هذه المرة الأولى التي أنوي فيها أن أعمل.. مات

والدي وترك لي أعباءً لم تكن في الحِسابان وما كان أمامي سوى أن أترك جامعتي وأبحث عن عملٍ يؤمن قوت يومي أنا وعائلتي.

- رحم الله والدك.. رحيل السند يكسر الظهر.. لكئك الآن رجلٌ..
وعليك القيام بمسؤولياتك!

فكر مازن بكلمات العم.. هل كان والده سنذا؟ وهل يستحق
الرحمة؟ تبدلت ملامحه من جزاء الذكريات المؤلمة.. فغير العم
الموضوع قائلاً:

- وماذا كنت تدرس يا بني؟

- طب تشريح.

- كان الله في عونك.. سأحاول مساعدتك في اختيار مهنةٍ تناسب
بنيتك الجسدية.

- أشكرك أيها العم.. أتمنى ذلك.

انتظر مازن يوماً.. ويومين.. وثلاثة.. كاد أن يفقد الأمل في إيجاد
ما يناسبه إلا أن العم ثامر كان يحاول مساعدته بشئى الوسائل..
وبعد مرور عدة أيام.. جاء العم ثامر باقتراح عملٍ على مازن.. لكئ
عملٌ مختلفٌ عن أي عملٍ آخر.. لا يحتاج القوة العضلية بقدر حاجته
للإيمان والسلام النفسي والرضى.. ولم يكن أمام مازن إمكانية
للرفض.. فالجوع أصبح حاضراً في الحياة اليومية.. وكادث مؤونة
الزيت والدقيق تنفذ تماماً من مطبخ الوالدة.

كان القدر هو من يقوده إلى ما هو عليه الآن.. (حارش في المقبرة)
هذا هو المُسمى الوظيفي للعمل المقترح.. وقد توقع ثامر أن الفتى

لن يقبل هذا العمل.. وشاء أن يُبلّغه به على أي حال.

لكنّ مازن وافق.. وبزّر ذلك أمام أمّه ليطمئنها:

- ولم لا يا أمي؟ ما العيب في أن أكون حارسًا في مقبرة؟

- لا عيب يا بني! لكنني أخشى عليك.. فقد درج الناس على فصل أحياءهم عن موتاهم.. وقال الحكماء أن التواصل بين هذين العالمين خطيئٌ. تخلّ عن هذه الفرصة يا بني أرجوك! وأنا سأبحث عن عمل لأساعدك.. لا يمكنك أن تنهي مُستقبلك في المقبرة.

- لا أملك خيارًا أفضل يا حبيبتي! المجتمع قاسٍ.. ولا نستطيع مواجهته.. ولن أسمح لك بالعمل؛ يكفيك ما قدّمته من أجلنا.. هوّني عليك يا أمّاه.. فقد تكون صحبة الموتى أفضل من العيش وسط ضجيج الأحياء.. لا تقلقي علي.. هذا وضعٌ مؤقتٌ وقد أجد بعده عملاً بدوامٍ جزئي.. فأعود إلى جامعتي في الوقت المناسب.. وأكمل طريقي.

قال جملته الأخيرة وهو موقنٌ باستحالة العودة.. كان يتنبأ أن العمل في المقبرة سيكون قدره طوال عمره.. ولا يعرف إن كان سيحظى بعمرٍ طويل.

نظرت والدته إلى عينيه بامتنان.. شعرت أنّه رجلٌ قادرٌ على تحمّل المسؤولية.. مدّت يدها لتمسح عن جبينه ما تجفّد.. مُحاولَةً إدخال الطمأنينة إلى قلبه المجروح.

(9)

في اليوم التالي استيقظ مازن على صوت ضحكاته والدته وأخته.. إنه حلم يتحقق أخيرًا.. ها قد بدأ الفرح يتسرب إلى داخل منزله وبدأت الضحكات تُنير ظلمة انتهكت كل خلية في جدرانه وأهله.. أسرع باتجاه الصوت ليجد والدته وزينب على الشرفة.. يستمعان لحمزة الذي يلقي عليهما ما حدث معه في المدرسة.. ابتسم مازن وألقى التحية.. التفتوا إليه بابتسامة مماثلة.

- اليوم هو يومي الأول في العمل.. زينب أريدك أن تصبري قليلًا على ما طلبته مني.

- لا تقلق يا أخي.. زفاف روان بعد شهرين ولا مشكلة في الانتظار.
فكر مازن في نفسه:

«آه يا روان! لو أمكنتني البوح لك بما يجول في جوارحي.. لو تمكنت من قطف تلك الابتسامة التي ترسم على شفتيك.. آه يا روان لو كنت بجانبني.. كم كانت ستصبح حياتي أجمل.. وأسهل» في كل مرة يواجه فيها مخاوفه تتراءى أمامه صورة روان كأثما المنقذة له.. وثرافقها صورة والدته التي زوجها أهلها في العمر نفسه تقريبًا.. إنها طفلة! هل ترغب روان حقًا بالزواج؟ هل ستبقى ابتسامتها كما هي بريئة مُفعمة بالحيوية؟ أم أنها ستفقدتها بعد الليلة الأولى لزوجها كما فقدتها أمي؟ كيف يحق لرجل خمسيني أن يختار جسدًا غصًا يجعل منه سبيلاً ليفرغ جام غضبه عليه متى شاء؟

خرج من المنزل جازًا خبيثًا وانطلق إلى المقبرة.. مقر عمله

الجديدا هذا يومه الأول.. كان العم ثامر بانتظاره ليخبره عن مهامه
325 وما يمكنه القيام به للحفاظ على وظيفته.

- أهلاً مازن.. أعرف أنّ الحياة بين القبور ليست ممتعة.. إلا أنّ
إيجاد وظيفة لك ليس بالأمر السهل.. خبرتك معدومة وبنيتك
ضعيفة.

- أعلم ذلك ولهذا لم يكن أمامي خيارٌ لأرقص هذه الفرصة.

- إذا إليك مهامك.. ستحصل على أجرٍ شهريٍّ مقابل الحراسة
الليالية.. وتحصل على أجرٍ إضافيٍّ إذا ساعدت في حفر القبور.. ما
رأيتك بذلك؟

- أكثر مما أزدت.. لا مانعٌ عندي من القيام بهذه الأعمال.

- هذه غرفتك هنا.. تضع فيها أشياءك.. وترتاح فيها.. ستجد داخلها
أدوات الحفر.. تناول المفتاح مني.. يمكنك الاتصال بي إذا شعرت
بشيء غريب.. حتى لو حدث ذلك في منتصف الليل.. هل ثقة شيء
تريد أن تسأل عنه؟

- شكراً أيها العم على وقفك معي.. لا تقلق قد تكون مساهرة
الأموات أفضل لي.

ذهب العم ثامر وترك مازن في المقبرة.. في الوحشة والعزلة
والهدوء الفسيع ضجيجاً.. لم يعتقد مازن أنّ الأمر سيكون صعباً
إلى هذه الدرجة.. المقابر مخيفة لمن يبقى دون ضحبة.. وللأموات
تقاليدهم المعروفة.. فهم لا يخرجون.. لا يتكلمون.. لا يؤنسون ولا
يرحبون بإنسان حي. أمضى اليوم الأول مستكشفاً على ضوء

المصباح أسماء الأموات الذين يحرس قبورهم.

وصل في جولته إلى أحد القبور الرخامية السوداء.. وقد زُخرِفَتْ
على حجارته بعض الآيات الكريمة بحبر ذهبي أو ربما بماء الذهب..
تساءل في نفسه: «هل في المقابر طبقات أيضًا»

مَن يدري؟ قد يُنفق بعض الأشخاص الكثير من أموالهم كي يُخبروا
الناس أن للموتى مراتب كما للأحياء.»

(10)

عتمة وسكونٌ مُخيفٌ يتسلَّل إلى ضجيجِ روحه.. لم يكن مازن مُدرِكًا وحشة الموقف.. بدأت الأفكار الغريبة تتدفَّق إلى ذهنه.. وبدأت معها هلوسات وتخيُّلات لم تكن بالحسبان.. رأى الموتى يسرون بلباس أبيضٍ نحوه.. رأى القبور تنهض والحجارة تتكسَّر.. امتلكه الخوف والدُّعْرُ فدخل إلى غرفته وأقفل الباب خلفه.. سَمِعَ أحدهم يطرق الباب ويُنَادِي بصوتٍ خشنٍ ومُخيفٍ .. لن أتركك يا مازن.. لم يملك الجرأة لإخبار العم ثامر بما شاهد.. فهو يدرك أنَّ كلَّ ما شاهده وشعر به ليس أكثر من أوهامٍ خائفةٍ وخيالٍ.. أو زُيما واقعٍ مريزٍ.

ظهرَ نورُ الصُّباحِ فاستعادَ مازن شعورَ الظمأنينة.. ها قد مضت الليلة الأولى بسلام.. ويومًا بعد يومٍ صارَ يعتادُ على هذه الأوهام والتهيُّوات.. لم يكن الأمر لطيفًا.. ومع ذلك فقد كانَ يقولُ في كلِّ مرَّةٍ تسأله والدته عن النوم بين القبور:

- الأموات لطيفون جدًا.. إنهم يسهرون معي ويضحكون ولا يؤذونني مثل الأحياء.

- هل تمزح معي يا بني؟!

- صدقيني يا أمي.. الحياة بين الأموات أفضل.

ينتهي الحديث بدهشةٍ مُرتسمةٍ على وجه والدته التي تخاف على ابنها.. وتعجبها شجاعته في الوقت نفسه.. يبتسم مازن بدوره محاولاً إدخال الظمأنينة إلى قلب والدته.

في الليلة الثانية.. تراجع مازن خائفًا إلى غرفته.. وأغلق الباب ليحمي نفسه.. لا يعرف من أي شيء هو خائف.. فالموتى لا يغادرون مساكنهم.. وفي الحقيقة.. لم يبق من الموتى شيء في هذا المكان.. فالروح تغادر الجسد أولًا.. والجسد يتحول إلى تراب تاليًا.. ولا يبقى من الاسم الذي تحمله هذه الشواهد بعد وقت قصير إلا صورته في ذاكرة من يحب.. لكنه تذكر معشوقته الشعثاء وما تخفيه له.. كانث جميع الأفكار مستنفرة في ذهن مازن.. تثير رعبه تارة وتهذي روعه طورًا.. كما كانت مخيلته في ذروة نشاطها لتتابع استحضار صور الأمس وأصوات الريح.. والأحاديث التي ظن مازن أنها تجري بين أرواح الموتى.. تلك التي أبعدت عن أصحابها وعادت باحثة عنهم.

تذكر مازن من حكايات الطفولة الفرعية.. أن الإيمان يُبعد الشياطين.. وأيقن أنه سلاحه الوحيد.. فاعتمد على تلاوة الآيات التي يحفظها.. وعزم على إحضار الكتاب المقدس معه غدًا.. سيطر على انفعاله وحزض جزءًا خبيثًا في نفسه.. ليشجعه.. جزءًا أورثه إياه والده يجعله مستهيئًا بكل شيء وغير مكترث.. لن تخيفه بعض أرواح تتناثر هنا وهناك دون أجساد تحملها.. ولن تخيفه بضع أجساد تسكن تحت التراب خلث من طاقتها وروحها.. ولن يهاب الموت.. فالموت كان النجاة التي تمنّاها طويلاً.. لنفسه ولأمه كي ترتاح.. ومن حسن الحظ أنه كان حكيماً فاختر والده الظالم.

انقضى الشهر الأول.. حفر فيه مازن عدة قبور.. ودفن فيها الجثث.. أخذ راتب الحراسة مضافاً إليه أجور الحفر.. تغيّرت نظرته إلى الموت.. لقد أصبح مصدر رزقه.. ومنقذ أسرته من الحاجة.. حتى الخيالات التي أرقت ليلاته الأولى.. لم تعد تزوره إلا لمامًا..

وكان ينشغل عنها بالقراءة.. فقد جلب كتبه الجامعية إلى غرفته في المقبرة لغرض المطالعة.. وكان يغيب فيها عن واقعه كليًا.

ذهب إلى المنزل وكان أول مبلغ يصرفه من راتبه لزينب.. لقد كان عند وعده.. احتضنته أخته وذهبت مُسرعة لترتيب نزهة مع صديقتها الوحيدة روان فربما تكون هذه آخر نزهة لهما.

رغب مازن في مُصاحبة زينب وروان في نزهتهما تلك.. كان على يقين أن ذهابه لن يُغيّر شيئًا.. فهو ما يزال غير قادرٍ على الاعتراف بحبها حتى الآن.. وما يزال الخوف من الرّفْض مُسيطرًا عليه.. فتجربته مع فتاته الشعواء لا يمكن نسيائها.. كان الرّفْض قاسيًا ومُربّعا مع استحالة ذلك الزّواج.. مضى وقت طويل على ذلك إلا أن الانعتاق كان قاسيًا.. ومع روان كانت تعوزه الجرأة أكثر.. كيف لا وقد اقتحم حياتها شخص آخر بصفة رسمية.. وبأثّ المهمة أصعب بكثير.

(11)

قَرَّرَ مازن أن يخرج روان من رأسه وقلبه كما أخرج فتاة الحلم قبل ذلك.. قَرَّرَ أن يبدأ حياةً جديدةً هنا بين القبور.. ستجعله وحشة هذا المكان أقدر على النسيان.. لكنّ مشاعره تأججت وأحزانه طافت على السطح بعد أن عادت زينب من نُزهتها.. ساد الضمت الذي كان سيّد هذا البيت.. وعادت الكآبة التي كانت سيّده بفعل التعاطف.. بعد أن تحدّثت زينب عن صديقتها روان بقهرٍ وحسرة.. التي ودّعت مع صديقتها الوحيدة حلم الحب.. وبريق الطفولة.. والضحكات التي ربّما لن تجمعهما ثانية.. كانت روان تودّع الحياة فعليًا.. وها هو التاريخ يُستعاد.. روان الآن في موقع الوالدة.. ستودّع الابتسامة وجهها الجميل.. وتغادرها براءة الطفولة بسبب رجلٍ لا يستحقّ أوصاف الزجولة.. تبكي روان لصديقتها وتبكي زينب معها.. زينب التي تعرف بالضبط كم ستكون حياة روان كئيبة.. كم سيكون بيتها مظلمًا وعابثًا.. وكم سيتمنى أولادها لو أنّهم لم يُخلقوا.. لم تقدر زينب أن تواسي صديقتها ولا شعرت روان بالعزاء في تعاطف الصديقة.. الصديقة التي ستتابع طفولتها.. ودروسها المدرسية.. وضحكاتهما بعد أن عبر كابوشها وانتهى.. بينما تستعدّ روان لاستقبال كابوس عمرها الأبدي.

بكّت الأمّ بحرقّة.. كانت تسترجع كلّ ما حدث.. تلك اللحظة التي بيعت فيها للزوج القبيح.. تلك اللحظة التي فقدت فيها الطفولة وضحكاتهما.. دون أن تحصل على شيء.. تخلّت عن نفسها ولكّنها لم تملك أمر نفسها.. وهذه روان مثلها.. ضحية جديدة في عالم يستلذ

أن يذبح الفتيات أضحياتٍ لدرءِ الشرِّ الذي يسمّى عازًا.

عازٌ استباقيٌّ يفترضُ الأهلَ أنه سيقع.. فقط لأنها أنثى.. فيعالجون مشكلةً لم تحدث بعد.. بمشكلة أكبر.

المشهدُ الذي تعرفه الأمٌ جيّدًا.. وليّتها لم تعرفه.

العجز.. إنه العجز.. ما يشعر به مازن الآن.. وقبل الآن.. نما العجز فيه كبذرةٍ عندما كان طفلًا.. كبر داخله والتهم أحشاءه.. كلّما انتابته رغبةٌ تدفعه باتجاهٍ ما.. شلَّ العجز يديه وقدميه.. لفَّ كأخطبوطٍ استطالاته المقرّفة حوله.. وثبته أرضًا.. وغلبه بالضربة القاضية.

هو العجز الذي يشبه مازن.. ضعيفٌ وهزيل.. لكنّه يشبه أباه أيضًا فهو مُخيفٌ.. مُسيطرٌ.. يضع سريره أمام الباب وينام بعينٍ واحدة.. استطاع مازن أن يهزمه مرّةً واحدة.. عندما تابع رغبته في الدراسة الجامعيّة.. في ذلك الحين تمكّن أن يسحبه إلى غرفةٍ جانبيّة.. ويحشره مع والده فيها.. ويقفل الباب.. تناهى إلى مسمعه يومها زعيقه.. مجسّدًا بصراخ والده ورفضه.. وانتقاده له.. لغبائه الموروث من والدته.. وهزاله من أخيها وأبيها.. إنه غير صالحٍ للعمل.. وغير صالحٍ للدراسة.. إنه فاشل.. لأنه ابن أمّه وتربيتها.

خرج الأخطبوط بعد موتِ الوالد أكثر قوّة.. وصارت ضرباته تلسّع.. تُفرّغ شيئًا من السمِّ في قلب مازن وتبني فيه مُستعمراتها.. لتخبره في كلّ مناسبةٍ كم هو فاشلٌ.. وغبيٌّ وضعيفٌ.

وقف مازن بعيدًا عن أخته وأمه.. راح يداري عينيّه اللتين تسيلان حزنًا أمام المرأة.. نظر إليه العجز بشماتةٍ مُتحدّيًا.. ها أنت ذا..

فاشل.. خاسرٌ ضعيفٌ.. لم تفقد حبيبك فقط.. بل خسرتِ جامعتك..
وشبابك.. لست الآن إلا حفارَ قبورٍ بائس.. ستشهد زفافَ روان بعد
أيام إلى مأتمها.. ستموت في البداية ابتسامتها.. هذه التي كانت
شمسك في فترة من الفترات.. وكانت ماءك.. وكانت هواءك.

ستصبح أمًا وتنجب فاشلاً يشبهك.. كنت تتمنى لو أنه ولدك.. لكنك
عاجز.

أطبقت أسلاك شائكة على روحه المتألّمة.. انغرسَت الأشواك
وأدمت قلبه.. غرق في نزيفه ولم يعد قادرًا على التفكير.. خرج
هاربًا إلى ملاذه.. إلى مسكن الموتى الهادئ.. وقف بين القبور النائمة
مستفراً ساكنيها.. وصرخ.. وبكى بصوتٍ قويٍّ حتّى خارت قواه..
وكانت روان في بيتها غارقةً في همومها حتّى أذنيها.. لم تغد
تطاوعها الدموع كأنها نفذت.. تتفادى نظرات الانكسار في عيون
والديها.. وتشعر أنّ قدرها لن يتخذ مسارًا معاكسًا بعد الآن.. وأنّ
تلك اللمحة السحرية العميقة التي أرسلتها نظرة مازن الأخ الأكبر
لصديقتها المفضلة كانت سرابًا وأصبحت مجرد ذكرى تكاد تُنسى.

روان أمام المرأة.. تنظر إلى وجهها بعينين جامدتين.. وأجفان
حمراء ملتهبة.. فاقدة العزم والإرادة كمن يسلم آخر أنفاسه للموج
الغضوب.. ويرسو في القاع.

هل عرف هذا الوجه الابتسامة يومًا؟ هل عاشت من الفرح
الطفولي البريء ما قد يكفيها أن تعيش على ذكراه ما بقي لها من
عمر؟ وهل تبقى الكثير؟

أشفقت على والديهما أن يقتلها الذنب والعار إذا ما قتلت نفسها..

وحاولت أن تجد شيئًا في خاطبها يشفع له قبحه ووقاحته.. وفي
المرة الأخيرة التي زارهم فيها أجفلت عندما لمسثها يده الكبيرة..
ثم هربت منه وهي تكاد تختنق.. فضحك ساخرًا.. حتى أخذته نوبة
طويلة من السعال تمنث أن يموت بعدها.. وعرفت أن خلاصها لن
يكون إلا بموتها أو موته.. وظننت أن روحها تتحول إلى جانب الشر..
لكنها لم تشعر بالذنب.. بل حملت مشاعر القسوة على وجهها الصغير..
وهجرت الابتسامة منذ تلك اللحظة إلى أن يتحقق أحد الأمرين.

(12)

وصل مازن إلى بيته الفريح.. غرفته في المقبرة.. تلك الغرفة التي باتت بديلاً عن كوخه المهجور.. جال بين القبور متمقناً في الأسماء المكتوبة على الشواهد.. كم واحد من هؤلاء عاش حياة قاسية.. عرف فيها الهوان والقهر ومرارة الفقد والعجز؟ كم واحد منهم أخذ أسرارته معه إلى الحفرة الأبدية؟ بدأ يتحدث مع نفسه تارةً ومع الأموات تارةً أخرى.. صار يعرف من الأموات من كان حسن الخلق في دنياه.. وعرف بالتقى واللين وحصل على دعوات صادقة بالرحمة ممن أحبوه.. وراح يناجيه.. ويبثه شكواه.. ويدعو له بالرحمة ويرش الماء على قبره.. وإذا قرأ على الشاهدة اسماً لرجل عرف أنه لم يكن صالحاً لأهله.. أو باراً بوالديه أو بأولاده.. كان يُبالغ في غضبه.. ويصرخ أمام قبره ويقزعه.. ويشتم ويصب اللعنات.. ويدوس بحذائه الضخم فوق ما يعتقد أنه وجهه البشع.. وفوق قلبه القاسي.. ويقفز صاباً جام غضبه كأنه يكسر أضلاعه وينتقم منه.

ها قد وصل إلى مُبتغاه وغادر الخوف قلبه.. وصار الذفء يزوره كل ليلة.. ففي شهره الثاني بدأ بالانسجام مع عمله حتى بات يقضي معظم وقته في المقبرة.. ومع تكرار حفره للقبور أصبح لقبه في القرية حَقَّار القبور وليس حارسها.. واكتسب من علاقته مع الموتى هيبة الموت ووحشته.. فصار فتيان القرية يهابونه.. وتخيف الأمهات أبناءهن باسمه.. ويختفي السائرون في القرية من أمامه بشكلٍ لافت للنظر إذا صادفوه عائداً من مناوبته الليلية.

بات في بداية شهره الثالث يعرف جميع سكان القرية.. منهم

من كان يزور فقیده بانتظام.. فيراقبهم وهم يتحدثون ويُنَاجون ويطلبون المغفرة.. ومنهم من لا يعود بعد الدفن أبدًا.. وفي بعض الأحيان كان مازن يسمع صراخ أحدهم على الظلم الذي سببه له الميت؛ كأنه جاء ليقترض منه بعد أن أصبح مهزومًا تحت التراب.. لا حول له ولا قوة.. يتقبل الإهانة بصمتٍ ويستمع للصراخ.. ويتلقى قبره اللطم والضرب.. الذي يتلقاه من الحي الغاضب الذي جاء يزوره متحسرًا على العمر الذي مضى ولم يُنصفه فيه هذا الميت.

قال مازن مرّة في جلسة مع أمه وأخته:

«في المقابر يتعلّم المرء فنون الحياة.. يتعلّم الاحترام.. يتعلّم كم هو مهمّ وضروريّ أن يكون مُنصفًا في حياته.. وأن يعيش بمحبّة ويزرع الحبّ والاحترام في عائلته وأهله.. كي لا يكون سببًا في ضياعهم بعده.. وفي غضبهم عليه».

قالت له الأمّ قلقة:

- لقد كبرت بني.. كبرت كثيرًا في هذا العمل.

- هذا صحيح يا أمي.. كبرت وتعلّمت أن أكون إنسانًا وأن أزرع الاحترام في طريقي.. كي أحصد الذكر الطيّب بعد رحيلي!

- على عكس والدك سامحه الله.

- كيف تستطيعين أن تذكره دون أن تكيّلي له اللعنات والشتائم التي تليق به؟ وتطلبين من الله أن يسامحه أيضًا؟ بعد كلّ ما فعله؟!

- مَنْ يسامح يرتاح.. ليس من أجله.. فأنا أحتاج إلى التسامح كي أريح نفسي وأدخل السكينة إلى روحي.. وقد كنت مع كلّ ضربة.. أو

صفحة من والدك أدعو الله ألا يكون أولادي نسخة عنه.. وكان أمني
ألا تنتقل القسوة إلى قلوبكم.

- ها قد تحققت أمنيتك.. أليس كذلك؟

قاطع حديثهما حمزة الذي وصل منذ لحظة من مدرسته:

- بالتأكيد يا أخي.. هجرنا القسوة في اللحظة التي عرفنا فيها
بمرض والدنا.. وخدمناه في أيامه الأخيرة كما لو كان والدًا حقيقيًا..
ولم نذكر له مشاعرنا نحوه.. كان ينظر نحوي مثل حيوان مفترس
لكنه جريح.. يتمنى لو يستعيد قوته كي ينقض علي ويغرس مخالبه
في قلبي.. ولم يكن يحاول حتى وهو يُحتَضِر أن يدعي حبه لنا.. أو
يبرر ما فعله بدعوى خوفه علينا ورغبته في حمايتنا.. لكننا لن نسمح
لقسوته أن تدخل إلى قلوبنا.. كما لن نسمح بعد الآن للضحكات أن
تُغادرنا.

انتهى النقاش بدمعة جارية على خد زينب انتبه إليها مازن..
كان يدرك سبب بكائها.. نعم روان هي من تبكيها زينب.. صديقها
الوحيدة التي تقبلت بؤسها وخيبتها وشمعة والدها السيئة دون أن
تُخرجها يومًا أو أن تهزب منها.. روان تلك الطفلة التي اختار والدها
رجلًا غنيًا ليدفع ثمن شرفها فيجمع أحلامها في كل لحظة.. ها قد
اقتربت نهاية روان واقترب فرح ذلك العجوز الذي وأد الطفولة
والصداقة بقراره لهذا الزواج.

حظ زينب الجيد متمثلًا بموت والدها باكراً نجاها من مصير مماثل
لمصير روان.. لم يكن والدها ليتردد لحظة أن يرميها لأي عجوز وأن
يقبض ثمنها بضع قطع نقدية تتحول في ثوانٍ إلى مشروب اللذة

الحارق.. الذي كان يفضل نقطة منه على أولاده الثلاثة.. والذي مات بسببه.. وبقي حتى آخر لحظة يطلبه ويبكي لحرمانه منه.. وكان تلتذذ الأم بدموعه.. وتمنع المشروب عنه لا لضرره الذي أتلّف الكبد وانتهى.. بل لتعذب زوجها.. وتشهد المزيد من دموعه.. التي فعلت فيها مفعول الشراب في زوجها.. لكنها لم تقتلها.

عاشت الأم هذه المشاعر دون أن تفهمها.. كانت تتقيد بتعليمات الطبيب.. وتحقن الزجل المحتضر بالمهدئات لتخفف ألمه.. في الوقت المناسب وبالشكل الصحيح.. تفعل ذلك كي تنتصر المحبة.. وتخفي مشاعر السعادة عميقًا.. وتنكرها إذا ضبطها أحد الأولاد وهي تبسم بارتياح.. وقد اختفى الظل الثقيل للزجل الذي سيأتي في الليل لضربها وإهانتها.. اختفى أخيرًا.. وإلى الأبد.

نظر مازن إلى شقيقته المتعاطفة مع صديقتها.. أحزنه حالها.. وما تكابده من مشاعر.. كانت نظرته تحمل اعتذارًا عن عجزه في تقديم أي شيء أو تغيير أي شيء.. لم يقوَ على مشاهدة أخته مكسورة حزينة فمسح على رأسها وقبلها.. ثم انصرف كاتمًا حزنه وضعفه.. فهذه المرة الثانية التي يرى فيها دموع محبوبته تخضع للظلم دون أن يتجزأ على إنقاذها.. أو أن ينال شرف المحاولة لذلك.. فما زال أضعف من أن يمتلك ناصية القرار ويعثور.

(13)

ارتفعت أصوات الزغاريد وبدأت الضحكات تعلو في منزل عائلة روان.. لم ترغب زينب بالذهاب لكنّها أذعنت لرجاء صديقتها التي تحتاجها لتشعر بالقوة على الاحتمال.. فذهبت لتشهد جنازة صديقتها وليس العرس.. كان غرسًا صاخبًا.. تبدو السعادة على وجوه الجميع فيه.. أشداق مئسعة لحشر المأكولات والضحك والابتهاج.. إلا أنّ دموع روان لم تتوقّف.. أدخلتها والدتها مع نساء العائلة إلى حمام العرس وبدأن بتجهيز الذبيحة لتصبح جاهزة لمصيرها.. بكت أمّها معها.. وقالت أنّها دموع الفرح.. أيّ فرح هذا الذي يشعر الجميع به.. والطفلة التي أخرجت من مدرستها تعدّ الليلة للزواج باسم الستّر.

برائحة كريهة وأنفاس تكاد تتوقّف من وزنه الزائد؛ تقدّم أبو زكريّا ليخطبها بعد أن رآها من شرفته ذاهبةً بلباس المدرسة.. ستكون الزوجة الثالثة له.. فهو رجلٌ ثريّ.. يدعي أنّه لا يفعل ما يغضب الله.. وأنّه يفضّل الحلال.. وكان بفضل ثرائه يستطيع أن يختار من يريد.. ولا يلقي رفضًا من أحد.. يتزوج ويطلق على هواه.. لم تملك روان حقّ الرفض.. فقد كانت ضحيةً لأبوين مهزومين ضعيفين أمام رجلٍ ثريٍّ يمارس سطوته عليهما دون أيّ سبب.. فمفهوم الستّر وضرورة زواج الفتاة كان مُسيطرًا على عقول الناس في هذا الزمن كما حدث في زمن والدّة مازن.. مع اختلاف بسيط بأنّ والد مازن لم يكن عجوزًا ثريًّا.. بل سكيّرًا متبطلًا وسيء الخلق.

انتهت حفلة الغرس وانتهى كلّ شيء.. انتهت الطفولة والبراءة..

عَادَتْ زَيْنَبُ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَتْ صَدِيقَتَهَا.. وَهِيَ لَا تَعْرِفُ هَلْ سَتَقَابِلُهَا
بَعْدَ الْيَوْمِ؟ وَهَلْ سَتَتَغَيَّرُ بَعْدَ الزَّوْاجِ؟ وَدَّعْتُهَا وَغَادَرْتُ بِرَفْقَةِ حَقَّارِ
الْقُبُورِ مَا زِنَ الَّذِي أَبْدَى تَعَاطُفَهُ مَعَ أُخْتِهِ الْمُنْكَوْبَةِ بِخَسَارَةِ رَفِيقَتِهَا
الْوَحِيدَةِ.. وَأَخْفَى فِي جَوْفِهِ حَرِيقَ أَلَمِهِ لَخْسَارَتِهِ هُوَ.. كَانَتْ رَوَانُ
طِيفِ حَبِيبَةٍ أَسْعَدَ أَيَّامَهُ.. صُورَةً فِي الذِّكْرِى لَابْتِسَامَةٍ بَرِيئَةٍ وَقَلْبٍ
كَانَ يَحَاوِلُ أَنْ يَنْبِضَ بِاسْمِهِ.. نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ خَلْفِ مَسَاحِقِهَا.. مِنْ
خَلْفِ أَلْفِ قَنَاعٍ وَأَرْسَلْتُ كَلِمَاتٍ لَمْ يَكُنْ يَصْدَقُهَا.. هَلْ كَانَتْ تَحِبُّهُ..
هَلْ كَانَتْ بَانْتَظَرُهُ؟

لَمْ يَحْدِثْ أَنْ قَابِلُهَا أَوْ تَحَدَّثَ مَعَهَا.. لَكِنَّهُ كَانَ يَبْتَسِمُ لِمَرَّآهَا..
وَلَطِيفُهَا.. وَكَانَ يَرْسِلُ لَهَا نَبْضَ قَلْبِهِ وَمَاءَ عَيْنِهِ.. نَظَرْتُ إِلَيْهِ تَوَدَّعَهُ..
وَتَوَدَّعَ رُوحَهَا مَعَهُ.. لَمْ تَنْظُرْ إِلَى زَيْنَبَ بَلْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ.

أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ سَأَلَ أُخْتَهُ فَأَجَابَتْهُ:

- وَمَاذَا يَنْفَعُ الْآنَ؟ لَقَدْ انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ!

كُلُّ شَيْءٍ انْتَهَى.. وَهَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ وَلَكِنْ مَا نَفْعُ كُلِّ مَا نَقُولُهُ؟
كُلُّهُ هَبَاءٌ.. إِنَّهُ الْآنَ مَعَهَا.. مَعَ ذَهَبِهِ وَسُطُوتِهِ وَثِقَتِهِ.. إِنَّهَا مَلِكَةٌ.. جَزْءٌ
مِنْ ثَرَوَتِهِ.. فَهَلْ سَتَحِبُّهُ؟ وَهَلْ سَتَتَذَكَّرُ يَوْمًا مَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ حَقَّارِ
قُبُورٍ.. مُتَلَعِّمٍ وَمَهْزُوزِ النَفْسِ يُدْعَى مَا زِنَ.. أَحِبَّهَا.. تَمْنَى أَنْ يَحْمِلَ
السَّمَاءَ فِي كَفِّهِ وَيَهْدِيَهَا لَهَا.. وَكَانَ يَرَاهَا شَمْسَهَا.. وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَا
تَرَاهُ! فَهَلْ كَانَتْ تَرَاهُ؟

لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُلَخِّصَ عَلَى أُخْتِهِ بِالسُّؤَالِ.. يَكْفِيهَا مَا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ
حُزْنٍ.. إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّفْكِيرِ السَّلِيمِ.. يَتَخَيَّلُ رَوَانُ الْجَمِيلَةَ بَيْنَ
يَدَيْ ذَلِكَ الْعَجُوزِ الْقَبِيحِ.. يَسْتَعِيدُ ذَكْرِيَّاتِهِ مَعَ وَالِدِهِ.. كَانَ يَرَاهُ وَهُوَ

يضرب أمه.. وهو يقودها ثملًا إلى السرير لينهال عليها بالضرب
الفرح مُنتقمًا من رقّتها.. باحثًا عن وصمة عارٍ تُمكنه من فرض
ضريبة من الكدمات على جسدها.. فتغلق الأم الباب خائفة على
أولادها من المشاهدة.. وتكتم صراخها.. ودمعها ودماءها.. لكنّ مازن
كان يعرف.. كان يدخل بعد أن يخرج والده.. يعرف أنّ أمه ليست
نائمة كما تدّعي.. وأنها تبتلع دموعها كيلا يسمع نسيجها.. وأنها وهي
تغرق في دمائها وآلامها ومهانتها لا تفكر إلا به.. ألا يراها.. ألا يصبح
مثل والده.

نامت زينب بين ذراعي والدتها.. شكرتا الله كثيرًا على موت
الوالد.. ونجاة زينب من مصير كمصير روان.. كانت الموافقة مؤكّدة
لو طلب أبو زكريا يد زينب بدلًا من روان.. لكنّ مَنْ سيوافق كان ميثًا
الآن.. يكفي ما نالته الأم من عذاب في هذه الحياة.. وهي لن تحتمل
أن يُصيب ابنّتها ما أصابها حتى لو اضطرّث لقتل نفسها.

توقّفت أفكار زينب ولم يبق لها سوى الدّعاء لروان بالخلاص
القريب.

في غرفة مُزينة باللون الأحمر دخلت روان مع رجلٍ تكاد لا تعرفه..
في عمر والدها لكنّه ليس لطيفًا معله.. لم تستطع الفرار من قبضته..
أمسك بها بقوة لتبدأ الضفعاث تنهال على جسدها الطّفولي.. لم
يكن والد روان أكثر بطشًا من زوجها.. لم تمتلك الخيار فيما هي
عليه الآن.. كان عليها أن تستسلم كما استسلمت أمّ مازن.. إلا أنّ
هذه الأخيرة كانت أكثر صبرًا وإيمانًا لثنجب أولادًا تزرع في قلوبهم
الحبّ والتسامح والاحترام.

لم تتمكّن روان بجسديها الغضّ احتمالاً ما حدث.. لم تتمكّن من الجراك.. مثل دجاجة مذبوحة.. كانت جاحظة العينين.. مفتوحة الفم.. تداخلت ألوان الصبغات التجميلية التي هيأها لتكون عروشا.. وانتقلت الألوان إلى ملاءة السرير.. ومختلف أنحاء الوجه والعنق.. وكانت نائمة نومتها الأبدية.

ماتت روان بين ذراعي الجشع والقسوة.. أرادت أن تموت لتنجو فتحقق ما أرادت.. لن تشعر بعد اليوم بالألم والعذاب.. لن تسمح له بضربها مرة أخرى.. لن يتمكّن من تفريغ غضبه وشكره على جسدها.. كما لم تترك مازن لوقت طويل.

استعدّ مازن لحفر قبر روان.. حبه الأول.. ها قد جاء إلى صار بإمكانه رؤيتها كل يوم.. نزل خبر موتها مثل الصاعقة على أسرتها ومحبّيها.. لم يكن أحد ليصدق ذلك.. والدتها التي أعدتها عروشا للموت.. والدها الذي سلّمها بيديه إلى قاتلها.. وفق عقد شرعي.. إنهما قاتلاها.. ومثلها مازن.. الذي لم ينكر شعوراً عميقاً من الارتياح لموتها.. ففيه منجاة لنفسه من جحيم الغيرة.. للمرة الثانية يتدخل الموت لمصلحته.. وهو سيردّ الجميل بحفر قبرها بعناية.. كي تخلد فيه بسلام.

انتهت مراسم الدفن.. أغمي على والدتها بينما يودع جسمها الرقيق المنتهك تحت التراب.. وغلب الذمّع والدها المسكين.. وهو يذكر صور طفولتها المرحّة.. وابتسامتها المشرقة العالية.. العالية حتى السماء.. والتي أطفاها الغيم الأسود.. وبين نحيب والدتها وبكاء والدها كان قاتلها يقف جبّاراً غير مُبالٍ بخسارتها.. كانت ضعيفة

جداً على رجلٍ مثله.. وقانون الحياة مثل قانون الغابة.. القوي يلتهم الضعيف.. وروان ليست أول ولا آخر فتاة يتزوجها.

وقف مازن بعيداً.. يعاني من تبيكت ضميره وهو يحتضن شقيقته محاولاً محو الصور الأليمة التي تسترجعها.. كيف سيتمكن من تبديل صورة الرجل الأناني القاسي من ذهنها.. حاول مع حمزة طويلاً تعزيز ثقتها بنفسها وبالأخرين.. لكن ما حدث لروان كان كافياً لتستعيد مخاوفها.. وكآبة وجهها.. ولم يعد معروفًا متى ستخرج من هذه الحالة هذه المرة.. يبدو هذا مُستحيلاً على أقل تقدير في الوقت الزاهن.

أعاد حمزة شقيقته إلى المنزل وبقي مازن في المقبرة لاستكمال تأدية وظيفته.. انتهى كل شيء.. انتهت حكاية حبه الأول بأسوأ شكلٍ ممكن.. وقف أمام قبرها الذي حفره بيديه وبدأ بالبكاء على الأيام التي لم يمتلك فيها الجراءة لفصاحتها بمشاعره.. بكى طويلاً وبصوتٍ مرتفع.. يظن أنه خذلها بضعفه وخجله الذي عَشش في قلبه.. ولم تخذله رغم ضعفها وقلة حيلتها.. كانت ترجو منه نظرة أمل لتهرب إليه.. كانت تستجدي حباً شعرت به في يومٍ من أيام الماضي.. أي نهاية هذه يا روان!

ترى ما الذي شعرت به وهي تسلم الزوج؟ هل فكرت به؟

هل نادى باسمه ولو بدون صوت؟

هل قتل زوجها كل الحب والجمال في قلبها قبل أن يقتلها؟

أسئلة أسئلة أسئلة!

لا شيء غير ارتداد الصوت.. وضجة تنبعث من طنين أفكاره..
تلوث عقله.. يرى روان أمامه عروسا.. لا مثل صورتها بالأمس.. بل
بوجهها الزهري الجميل.. وعينيها الغائبتين في ابتسامة واسعة
كالسمااء.

نادى:

تعالى إلي!

هربث.. ونظرة الحبيبة هذه المرة تعلو محياها.. هربث بعيدا
واختفت بين الأشجار.

نهض مكسورا إلى عمله خوفا من أن يراه أحد.. عادت التهيؤات
إلى يومياته في المقبرة.. يستعين بها كي يكسر حصار وحدته..
ويشعر بالاستئناس: يقول الحكماء أن التواصل بين الأحياء
والأموات خطير.. قال مازن في سزه: «ربما كان خطيرا لكنني أخطر
منه! فما رأيته في عالم الجن كان أكثر رعبا من هذا»

(14)

مضت الأيام وبدأت زينب تستجيب للحياة بفضل أسرتها التي حاول كل واحد فيها أن يمدها بالحب والمرح.. أكدت لها أمها أن موت روان نجاها من ألف ميتة في اليوم.. وأن قرب أجلها كان بفضل نقاء روحها وصدقها مع نفسها.. وقالت أنها تمتت الموت كثيرًا.. ولم يمنعها من قتل نفسها في الماضي غير أطفالها.. وخوفها عليهم من بطش الوالد وجنونه.

مرت الأيام على مازن كالعادة.. أنس بالأطراف التي أصبحت تزوره بشكل يومي.. وفي ساعة محددة لا تتأخر عنها.. وكان الطيف الأعز لروان.. يكلمه.. ويستمع إليه.. ويخفف من ثقل الوحدة وتبكيه الضمير.. أنس بتفسير أمه وارتاح لموت روان المبكر الذي سيخفف عنه ألمه لحالها وهي تقتل في كل يوم.. ويتذكر أنه كان شريكًا -دون أن يدرك- في الحوادث التي أودت بها إلى هذا الجحيم.

ها هي ذي الآن قربه.. طيفها يؤنسه.. ويطمئن أنها بعيدة جدًا عن كل ما يمكن أن يؤذيها.. ها هو طيفها قريب منه وحده.. إلا أن طيف عشيقته الشعثاء لم يعد يزوره.. راثثها وصوئها ونظرثها الأخيرة لم تفارقه.. ها قد صار أمام موتين؛ موث للحلم وموث للأمل.

بعد فترة قصيرة جاء رجل إلى المقبرة.. وطلب من مازن أن يحفر قبرًا كبيرًا لوالده.. ترخم عليه كما يفعل في هذه المناسبات.. ثم سأله عن هويته.. فقال الرجل:

- إنه أبو زكريا.. ألا تعرفه؟ كنا هنا منذ بعض الشهر لدفن زوجته

الجديدة التي ماتت ليلة العرس.. لقد كنت في العرس أيضًا! إنه والدي لكثني -ولا أخفيك- غير حزين على موته أخيرًا.. فقد كان سيء النفس محبًا للذنيا.. موته الآن هو رحمة لأمي.. ولنا نحن أبناءه.. ولخالتي ضرة أُمي وأولادها.. ولجميع الفتيات اللاتي قد يصبخن فرائس في شبابه.

تفهم مازن نعمة زكريا على والده.. ولم يستغرب سروره الواضح بموت أبيه.. وقال:

- الآباء هكذا.. أنا نيتون.. يُقررون عنك.. ويتحكمون بك.. ويذيقونك الويل.

- لا! ليس جميع الآباء هكذا.. من الممكن أن يكون والدي ووالدك هكذا بالفعل.. لكن هذه الحياة مليئة بالآباء الحقيقيين.. الآباء الأثرياء كما أسمّاهم.. ولا أقصد الأثرياء بالمال.. فوالدي كان صاحب مال.. بل أقصد الأثرياء بمشاعرهم وعواطفهم ووقتهم.. إنهم يفيضون حبًا.. ولكننا للأسف لم نستطع تجربة ذلك.

- تعرف والدي أيضًا؟

- نعم للأسف.. من في هذا القرية لا يعرفه ويعرف أفعاله وقسوته عليكم.. كما كان والدك يميل إلى أبي لأنه على شاكلته.. وكان يستدين المال منه ويشاركه سهرات السكر.

- لا تأسف فأنا من عليه أن يأسف على حظّه.. وكيف مات والدك؟

- مات بحادث سير.. كان عائدًا من إحدى سهراته الماجنة.. ربما كان ثملًا وهو يقود عائدًا عبر الطريق المنحدر.. فاختل ميزان

السيارة وسقطت به في وادي الشوك.. كانت الوحوش قد نهشت جثته عندما وجدها أحد الرعاة صباحاً بعد يومين من موته كما ورد في التقرير الجنائي.. الجزاء مخيف لكنه عادل دون ريب.

- رحمه الله!

قالها مازن بغضة مقلداً أمه في سماحتها وتوكلها على الله.. ها هو الموت الرفيق.. يطل من جديد ومع هدية جديدة.. قالت الإشاعات أنه كان قد اقتطع أذن روان بأسنانه تلك الليلة.. وقال ابنه أن الوحوش التهمت من جثته أذنيه وعينيه وأعضاءه وتكفل الدود بالباقي.. فكما تدين ثدان.

قال زكريا:

- الله غفار رحيم.. مع أن الزاحل لا يستحق الرحمة.

بدأ مازن بحفر القبر.. كانت عيناه نبعان من الدموع الغاضبة.. ووجهه يلتهب حزناً على روان وفرحاً بعارها.. تمنى لو يرجئ الحفر إلى المساء.. ليحضر طيف روان الحبيب.. ويشهد.

انتهت مراسم الدفن دون أي دموع من أحد.. كل أتى واجبه بحضور متعجل ثم مضى إلى أعماله.. إلا مازن.. الذي بدأت أفكاره بالتشوش.. وراح يتحدث إلى نفسه.. فيضحك تارةً ويبكي أخرى.. ويضرب نفسه بقهر بعد ذلك.. استعاد المأساة من لحظاتها الأولى.. لو تحققت قليلاً يا روان.. ها هو يموت.. كنت ستصبحين حرة.. كنت ستعودين إلي.. أين ذهبت ابتسامتك الآن؟

استلقى قرب قبر حبيبته ونام متعباً.. ورأى في الحلم روان

تبتسم.. ترتدي ملابس بيضاء مرفرفة.. كأنها أجنحة فراشات.. طارت وهي تبتسم.. وارتفعت عاليًا وكان على مازن أن يشدّها من ثوبها.. لكّنه شدّ وشدّ حتى انقطع الثوب واختفت فراشته في سماء متعددة الطبقات.

استيقظ عند الغروب.. كائن يدها تمسكان بقوة بقطعة قماشية كان يضعها فوق رأسه خلال الحفر.. كي تقيه من الحرّ.. وبقي في مكانه يسترجع حلمه إلى أن حلّ الظلام.. وقد كان الليل تأثيره على نفس مازن.. ففي الماضي.. كان يعود والده في الليل.. ويبدأ بالصراخ والتهديد سكرانًا حتى ينال من الأم المسكينة القابعة في سريرها.. فيصّب جام غضبه وخسارته في سهرته تلك عليها.. وكان مازن خلال ذلك يلزم الضمت كيلا ينتبه والده لوجوده ويبدأ بضربه.. أمّا في الوقت الحالي.. فقد أصبح ليل بعد آخر.. ففي ليل المقبرة يلتقي حبيبته.. يحادثها.. يتخفّف من أثقاله بإلقائها عند قبرها.. ويسعد بعناق طيفها.. والليلة هذه سيحتفل معها.. سيحتفل بالانتقام.. والقار من قاتلها.. سينتقم لها.. سينتقم! لن يمضي هذا الليل دون أن يُنجزّ جزأه من الانتقام.. نعم الانتقام الآن هو كلّ ما أراد.

تصارعت أفكاره ولمعت في رأسه طريقة لإرضاء ذاته بمحاكمة من عذّه غريمه وسرق منه ومن زينب فرحتهما بوجود روان.

«إن لم نستطع الحصول على حقوقنا من الأحياء ولم نمتلك الشجاعة في مواجهة ظلمهم؛ فما علينا إلّا أن نقوم بمحاكمتهم أمواتًا ليعلم الإله أن لهذه الجثة آثار محاكمة قام بها حقار القبور.. آخر وسيط بين الموت والحياة.. كي يرفع مستوى عذابه ولا يغفر له

محاكمة! لمعت الفكرة كشهاب في ظلام رأسه.. نعم محاكمة.. ولم
 لا؟ فمن لا نقوى على الوقوف في وجوههم وهم أحياء.. يجب أن
 نطعن جبروتهم المتبقي في ذاكرة أذهاننا حتى باتت الخوف يُحرّكنا
 لإرضائهم والمثول لأوامرهم بعد رحيلهم.. إنهم يستحقون الموت
 أكثر من مزة.. والظعن بهذا الفأس مزة تلو مزة.

صار سواد الليل حالكا.. تناول أدواته من الغرفة ووقف أمام قبر
 المجرم.. بدأ بالحفر من جديد.. وشيئا فشيئا بدأت تظهر الجثة في
 كفنها.. استخرجها ثم نظر إليها وهي أمامه بعينيهِ الواسعتين.. هذه
 جثة ليست كباقي الجثث.. إنها جثة قاهر قلبه.. الذي أذاه وهو لا
 يعرف عنه شيئا.. كان عليه أن يخمن أن لروان عاشقا فتى يحبها..
 وأنه يحرمه منها.. وتناسى مازن أنه لم يبادر نحوها أبدا.. فصقم
 من خلال الخيالات والأطراف حكاية مختلفة عما جرى في الواقع..
 يقنع نفسه في الحكاية بأنه ضحية ظلم القوي وجبروت المال.. وأن
 حبيبته قد انثزعت من حضنه ومن قلبه.. ثم سلّمت لغريمه بعد أن
 كُبل بالقيود الحديدية في دار بعيدة ومظلمة.. قتلت الحبيبة نفسها
 كيلا تسمح لرجل غيره أن يلمسها.. وقتل مازن هذا الغاصب السارق
 الدنيء مئة مزة في الحلم إلى أن مات في الحقيقة.. وسيتابع
 انتقامه حتى بعد موته ودفنه.

رائحة الخوف تطفو في الظلام.. يزيدها بالنسبة لمراقب افتراضي
 شبخ حي لحقار قبور.. يحمل جثة نصف مأكولة.. ورائحة نتنة
 تنبعث منها.. وذكرى حكاية حقيقية عن عجوز متعجرف دمر حياة

روان.. وكان لا بد من المُحاكمة وتطبيق العقوبة من أجل العدالة.

ثبت الجثة على جذع شجرة بعيدًا عن القبور.. ربطها بحبل موجود في الغرفة.. ونظر دون خوف إلى جثة مخيفة مُحللة ومشوهة.

شعر أنه أشبه بالملك.. وأن له سلطات عليا.. وأنه مخول بذكر التهم والنطق بالحكم.. وتطبيق العقوبة.. اجتاحه شعور غريب يرفعه من مرتبة البشر العاديين.. كأنه سفير أو وسيط بين عالم الموتى وعالم الأحياء.. وعليه أن ينقل بأمانة ذنوب الميت وأخطائه كي ينال حسابًا عادلًا على كل ما اقترفته يداه.

على ضوء القمر الذي كان مكتملاً بدأت المُحاكمة.. بتطبيق العقوبة أولاً لأنه متوثق من ذنوب المجرم.. ولا حاجة لقراءة التهم علنًا والنطق بالحكم.

صاح بوقار:

- لروح روان التي خسرت ضحكتها إليك هذه الطعنة.. لروح والدها مكسور الفؤاد إليك هذه الطعنة.. لروح والدتها التي أعيها بكاء طفلتها إليك هذه الطعنة.. لروح أختي زينب التي قتلت صديقتها الوحيدة وعاقبت روحها إليك هذه وهذه.

لروحي أنا حبيبها المقتول محلها.. والمعتقلة إرادته.

من أجل كل دمعة ذرفتها من خوفي.. وترددي.. ويأسي بعد خطوبتها.

من أجل كل لحظة خافت فيها أختي على نفسها من أمثالك.. وخافت فيها على صديقتها الوحيدة بعد أن حكّم عليها أن تمضي

إلى سجنك.

من أجل شكرك.. ومجوناك.. وعربدتك.

من أجل ولدك زكريا.. وأمه وإخوته.

من أجل زوجتك الثانية التي كانت ذات يوم طفلة بريئة مبتسمة.

طعنة وطعنة وطعنة...

تعبت ذراعاها.. وتعب الفأس.. ارتمت أرضا وهو يشعر براحة كبرى

انتهت المحاكمة!

أخذ نفسا عميقا وهو يحاول استنشاق رائحة العدالة التي انطلقت من سجنها.. ودون أن يبدى اكتراثا بشريا لما فعل.. تابع مهمته السامية حتى النهاية: فحمل تلك الجثة الكريهة من جديد وأعاد دفنها في قبرها ذاته.. وعاد إلى غرفته كأن شيئا لم يكن.

هناك في ذلك القصر.. جلس الشعاء على سريرها منهكة القوى.. كان قلبها ينتفض متعبا؛ فقد بذلت من الجهد الكثير هذه الليلة وحات الوقت للنوم.

من هنا كانت البداية.

كان على عقل مازن أن يجد منفذا يستطيع من خلاله أن يستعيد دوره في الحياة.. وأن يفعل ما يراه صوابا بعد أن استولى العجز على إرادته أعواما.. اكتفى خلالها بالانفعال والتأثر.. اختار المشيئة الكونية أن يكون هنا.. يشهد نهايات الناس ويحكم على سلوكهم في الحياة.. وهو يتمتع بالبصيرة التي يعرفها المظلومون.. لكشف الظلم..

والتوثق من التهم.. والحكم بالعدد الصحيح والمناسب من طعنات
الفأس..

يخرج مازن بعد كل مُحَاكِمَةٍ أَكْثَرِ قُوَّةٍ.. يشعر بالسَّكِينَةِ لِأَنَّهُ شَارَكَ
فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ.. يترك الناس فقيدهم في الحفرة ويرحلون.. ومهما
كان فاعلاً بهم ومعهم خلال حياته فهم يتركونه لينال حسابه من
قبل ربِّه.. وقد أحضر الزَّبَّ مازن إلى المقبرة كي يقوم بهذا الدور..
هذا ما فُكِّرَ فِيهِ مازن وصدَّقه.. وشَرَّ به.. فأصبح يشعر أَنَّهُ رَسُولٌ
سَمَآوِيٌّ يَحْصِي الأَفْعَالِ وَيَقِيمُهَا.. ويمتلك السُّلْطَةَ وَالْإِذْنَ فِي الْحُكْمِ
عَلَيْهَا.. وَكَانَ طَيفُ رَوَانَ يُؤَيِّدُهُ.. وَيَسَانِدُ قَرَارَاتِهِ وَيُثْنِي عَلَى رَجَاحَةِ
حُكْمِهِ وَدَقَّةِ عِقَابِهِ.

وهكذا هدأ قلب مازن بعد أن أنهى انتقامه ونال ثأره.. فشفي غليله
وجرث دموعه التي كانت حبيسةً وهو يرى حبيبته تُسَاقُ كَالذَّجَاجَةِ
إِلَى السَّكِينِ.. وشعر أَنَّهُ انتقم من والده أيضًا في شخص أبي زكريا..
فقد انطبقت صورة الزَّجَلِينَ فِي ذَهْنِهِ.. بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ تَظْهَرُ إِذَا
ذَكَرَ أَحَدَ الأَسْمِينَ: وَهِيَ صُورَةُ جَعَّةٍ عَفْنَةٍ مَطْعُونَةٍ وَمُمَرَّقَةٍ.. رَمَاهَا
دُونَ كَفْنٍ فِي حَفْرَةٍ عَمِيقَةٍ.. ثُمَّ رَمَى عَلَيْهَا حَفْنَةً تَرَابٍ مَعَ حَفْنَةٍ مِنْ
جِرَاحِهِ وَانصرفت كما انصرفت معه مُنْتَقِمَةً.. اعتقدت أَنَّ جَرِيمَتَهُ
تِلْكَ كَانَتْ اِنْتِقَامًا مِنْ وَالِدِهِ وَمِنْ كُلِّ أَبٍ وَرَجُلٍ تَسَلَّطَ وَظَلَمَ.. وَلَكِنْ
الأمر لم يكن كذلك؛ كانت رَوَانُ هِيَ المُشْكَلَةُ.. هِيَ مَنْ يَحْزِكُ اِنْفِعَالَهُ
وَتَصَرَّفَاتِهِ.. حَبَّه لَهَا بَاتَ فَاضِحًا وَدَمُوعَهُ عَلَى قَبْرِهَا لَمْ تَشْفَعْ لَهُ أَمَامَ
تِلْكَ الشَّعْثَاءِ خِيَانَتَهُ لَهَا.. مَاتَتْ رَوَانُ وَلَكِنْ حَبَّهَا لَمْ يَمُتْ.. كَانَ سَاكِنًا
قَلْبِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْكُنَ أَحْلَامُهُ هِيَ.. وَرَبَّمَا كَانَتْ مُرَافَقَةً لِأَيَّامِهِ الْإِنْسِيَّةِ..
أَثَارَ جَنُونِهَا التَّفَكِيرُ بِالمَوْضُوعِ.. سَاعَدَتْهُ فِي جَرِيمَتِهِ رَافَةٌ لِحَالِهِ إِلَّا

أَنَّ غَايَتَهُ قَدْ جَرَحَتْ فُؤَادَهَا.. نَعَمْ لَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ الْإِنْتِقَامِ.. وَلَكِنْ الْآنَ
لَيْسَ إِنْتِقَامًا لَهُ.. إِنَّمَا مِنْهُ.. تَلَبَّسَتْ جَسَدُهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِكُلِّ مَا لِلْجَنِّ مِنْ
قُوَّةٍ.. وَبَدَأَتْ مَعْرَكَتَهَا مَعَهُ.

اسْتَيْقِظَ مَازِنٌ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ.. كَانَ لَا يَزَالُ مُنْتَشِيًا لِنَجَاحِ حَقِّقِهِ
بِالْأَمْسِ يَعْرِفُ تَفَاصِيلَهُ لَكِنَّهُ يَنْكُرُهَا فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ.. كَأَنَّهَا مَجْرَدُ
حَلِيمٍ مِنْ شُؤُونِ اللَّيْلِ.. لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسَهُ.. رُبَّمَا لِأَنَّهَا الْمَرَّةُ الْأُولَى
الَّتِي يَشْعُرُ فِيهَا بِأَنَّهُ قَادِرٌ.. وَفَاعِلٌ.. فَذَهَبَ إِلَى قَبْرِ رِوَانٍ.. وَنَاجَاهَا
قَائِلًا:

- لَقَدْ أَخَذْتُ بِعَارِكَ.. بِئَارِنَا! لَقَدْ انْتَهَكْتُ حُرْمَةَ قَبْرِهِ وَطَعَنْتَهُ عَنِّي
وَعَنْكَ.. لَمْ أُمْتَلِكِ الْجُرْأَةَ فِي الْمَاضِي لِأَخْبِرَكَ بِمَا أَشْعُرُ بِهِ نَحْوَكَ..
وَقَدْ فَاتَ الْوَقْتُ عَلَى ذَلِكَ.. أَعْلَمُ أَنَّكَ تَغْفِرِينَ لِي.. وَتَعْلَمِينَ حَالِي..
وَأَنَا أَعِدُّكَ بِأَنْ أَنْتَقِمَ مِنْ كُلِّ رَجُلٍ يُحَاوِلُ مَحَوَّ ضَحْكَةِ فَتَاةٍ وَتَعْنِيفِ
جَسَدِهَا.. رُبَّمَا تَأْخُرُ الْإِنْتِقَامُ قَلِيلًا لَكِنَّ الْأَوَانَ لَا يَفُوتُ أَبَدًا.. فَالظُّلَمُ
بَاقٍ مَا بَقِيَ الْإِنْسَانُ.. وَقَدْ كَلَّفْتُ الْيَوْمَ بِمَهْمَتِي.. وَاسْتَيْقِظْتُ الْآنَ مِنْ
غَفْلَتِي.. وَمِنْ خُنُوعِي وَضَعْفِي.. لَمْ أَعِدْ أَرْجُو مِنَ الْعَمْرِ إِلَّا أَنْ يَكْفِينِي
لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ.. وَأَخَذَ الْعَارَ.. لَمْ أَعِدْ أَحْلُمُ أَنْ أَسْتَعِيدَ حَيَاتِي كَابِنٍ
مُظْلُومٍ فِي عَائِلَةٍ مَفْكُكَةِ الْأَوْصَالِ.. وَلَا أَنْ أَرْجِعَ إِلَى كَلْبَتِي حَيْثُ
يُدْرَسُ الطُّلَابُ حَالَاتِ كَحَالَتِي وَيُظَنُّونَ أَنَّهَا شَاذَةٌ.. لَقَدْ أَصْبَحْتُ
حَيَاتِي مَرْهُونَةً لِهَذِهِ الْمَقْبَرَةِ.. سَأُبْحَثُ عَنِ الظَّالِمِ وَأَحَاكِمُهُ.. أَصْبَحْتُ
أَعْلَمُ الْآنَ بِأَنَّ الْأَمْوَاتَ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لَيْلًا.. وَيَتَحَدَّثُونَ
عَنْ أَسْرَارِهِمْ.. وَيَعْتَرِفُونَ بِآثَامِهِمْ.. وَأَنَا هُنَا أَلْتَقِطُ وَأُسْجِلُ وَأُجْرِي
الْمَحَاكِمَاتَ عَلَى الْجَسَدِ نَفْسَهُ.. فَالْجَسَدُ مِنْ صِلَاحِيَّاتِي أَنَا.. وَالزَّوْحُ
مِنْ اخْتِصَاصَاتِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ.

هل أسعدك انتقام الأُمس؟ هل أنت راضية عني؟

كان في لهفة للحديث معها كما يفعل ليلاً.. لكنّ الهلوسات الليلية تنام كالخفافيش نهارًا وتخاف الشمس.. انتظرَ طويلاً حتى أحرقت الشمس أهدابه.. لم تجبه روان.. يبدو أنّها نائمة.. أسعدته صورتها الخيالية.. نائمة في قبرها المريح.. يلفّها الكفن الأبيض.. وتشعر أن حارسها يحميها.. وأنه لن يسمح بأن يصيبها الأذى ولا الظلم.

تلك الليلة حوّلت مسار مازن وغيّرتة.. ومن تلك اللحظة صار في ظنّ نفسه بطلاً مُرسلاً من السماء غير مدرك أن كلّ تلك القوة التي تحلّى بها كانت مُستمدة من تلك الشعءاء التي ساعدته ليكسر حاجز الخوف.. كانت رفيقته في الليل لينتصر على ظلامه وظلمته.. ويحاكم كلّ ظالم طفى وتجبر على ذويه.. كان يشعر باللذة إذا فعل ذلك.. حتّى أدمن الأمر.. وصار يبحث عن أيّ رذيلة يلصقها بالميت كي يحاكمه.. فيبدأ كلّ شيء بالسؤال المُعتاد:

«هل الميت ذكر أم أنثى؟» فهو لا يحاكم الإناث.. ثم يسأل عن اسم الميت.. وعن عمره.. وأخلاقه كما يستطيع الناس أن يتذكّروا.. وعن كلّ قصة تدور حوله.. وعن دوره في حياة أبنائه وعن شعور زوجته لفقده.

كما يزن الدموع التي سفحت عند قبره.. يومًا.. يومين.. ثلاثة.. وسبعة على أبعد تقدير قبل أن ينهي ملفّه.. ويقرّر موعد محاكمته في الليل.

والويل ثم الويل للجنة الحديعة إن كان صاحبها من الظالمين.

لا تمرّ هذه الحوادث على خيرٍ بالتأكيد.. ففي التطرّف الشديد لحالات العار والانتقام والثلثذ.. وفي الانفصال الشاذّ لشخصية مازن الابن والأخ والسند نهازا.. وشخصية حقّار القبور المحضن بالقوى الغيبية ليلاً.. ثقةً شيء لن يستمرّ على ما يرام.. كان مازن يشعر أنّه يتسامى كلّما أدّى واجباً من واجباته الخاصة في المقبرة.. وعندما جاء العمّ ثامر في نهاية الشهر لينقده أجره وراتبه.. شعر أنّه يستطيع الاستغناء عن المال.. لولا ظروف المعيشة وحاجات الأسرة.. فرسالة التي يؤذيها من خلال هذا العمل تغنيه وتكفيه.. لكنّ التوحّش الذي يسيطر عليه عندما يستخرج الجثث دون خوف.. ويطعننها معتاداً على العبث بالأجساد البشرية المكزّمة.. وعلى المناظر المشوّهة للجثث الميّتة.. بالإضافة إلى ألفته مع المقابر وسكّانها.. ستكون أسباباً ونتائج لا تحمد عقباها.. وقد بدأ التغير يظهر على وجه مازن وعلى تصرفاته.. وكان أوّل من يمكنه أن يلاحظ ذلك.. أمّه بالتأكيد.. وأخته وأخيه.

(15)

صارحت الأم ابنتها وهي تعدّ له فنجانًا من القهوة.. في اليوم الذي حصل فيه على راتبه.. واشترى الحاجيات الناقصة.. ووزّع على الأم وعلى زينب وحمزة ما يحتاجونه للمصروف الشخصي:

- لقد تغيّرت يا مازن.

- ماذا تقصدين؟

- لم تعد ذاك الحالم الفحّب.. أحسّ بأنّ القسوة قد تمكّنت من التسلّل إلى قلبك.. بني.. هَلَا بحثت عن عملٍ مختلف بعيدًا عن المقبرة؟ إنّ ضحبة الموتى ثمّيت القلب!

- لا يا أمي.. كلّ هذه أوهام.. وأنا لا أستطيع الابتعاد عن المقبرة.. إنّها مسؤوليتي!

- عملك في المقبرة لم يعد يناسبنا.. قد تفقّد إنسانيّتك هناك.

فكّر مازن بمطلب أمّه.. هل عرفت بشيء؟ هل يستطيع قلب الأم أن يعرف ماذا يحدث مع الولد؟ عليه أن يراوغ فعقلها البشريّ المحدود لن يسمح لها بفهم المهمة العظيمة التي يضطلع بها في المقبرة.

ضحك قائلاً:

- أنت ثبالغين يا أمّاه.. كلّ ما في الأمر أنّ أعباء العمل تزداد فالموتى كثّروا.. فالازدحام وصل إلينا أيضًا.. اعذّريني إذا ما قصّرت.. وأهمّلك أنت وأخوي.. ولكنّ ما أقوم به غاية في الإنسانيّة..

فليطمئن قلبك.

- سأصدقك لأتني واثقة من تربيتي لك.

كل ما علي فعله أن أتصرف كابن طبيعي أمامها.. فهي ككل
الأمهات.. تخاف من أي شيء غير طبيعي.. فاصطنعت المرح من
جديد وقلت:

- على الرجل أن يجد عملاً.. ولا نعرف.. قد أصبح مسؤولاً كبيراً
عن جميع مقابر القرية.. أو ربّما البلاد.. وأتمكّن أن أصبح ثرياً.. وأن
تزوّجيني بفتاة جميلة مثلك.

ضحكت الأم من بين دموعها.. ومسحت بالمناديل ما أوهمت ابنها
أنه عرق الحزّ فوق جبينها.. كيلا تقلقه دموعها القلقة.. فربّما لا تكون
مخاوفها إلا أوهاماً.. ربّما.. قلبها لا يصدق.. يقنعه عقلها.. فمازن لا
يعرف الكذب.. وهذه التغيرات التي تلاحظ حدوثها قد تكون مجرد
تغيرات الانتقال إلى سنّ النضج.. حاولت أن ترى ابنها عريساً في
خيالها.. لكنها استكملت الصورة بعرويس حضرت غنوة.. الضحية
روان.. التي ظهرت إلى جوار مازن بالصورة التي كانت عليها ليلة
عرسها.. ليلة مقتلها.. كم كانت ستليق به لولا قسوة الأقدار.

نظرت إلى عينيه الواسعتين وقد بدا الهمّ مُقيماً فيهما.. ليس همّاً
مؤقّتاً عابراً.. إنها تشعر أنّ شيئاً يتغيّر في عينيه.. نظرته أصبحت
شرسة لا رحمة فيها كنظرة جلال كانت قد شاهدت رسماً معلقاً له في
بيت أحد الأقارب عندما كانت طفلة.

أرادت أن تفهم وأن تلمس له غدراً على البون الذي شعرت به

بينَ ما قاله وما ظهر في عينيه.. ولكن دون جدوى؛ لم تتمكّن من الوصول إلى نتيجة فقد انسحب من أمامها هاربًا من ألف سؤال يدور في ذهنها منتظرًا فرصته بالجريان ليصبح كلمات يلونها القلق.

انصرف باحثًا عن نشوة يستلذ بها بين ضحاياها في المقبرة.. مقتنعًا أنها على العكس: مهمات مُرسلة له من قبل القدر ليحاكمها ويصدر حكمه.. ثم يطعن القلوب التي لم تحب إلا نفسها.. والأجساد التي تغلبت بالقوة على الحق.. تاركًا الأرواح المذنبة هائمة في سماء المقبرة بانتظار محاكمتها بعد ذلك أيضًا.

وصل إلى المقبرة فَرَحًا.. وضع جعبة طعامه وزجاجة الماء في الغرفة.. ثم ذهب إلى قبر روان لإلقاء التحيّة كالعادة.. وكعادتها كانت عينا الشعناء تقدحان شرًا لرؤيته أمام قبر روان في وقت لم تغد تستطيع اقتحام أحلامه.. ها قد نفّس ماضيه معها وبدأ حكايته مع مدفونة إنسية.. لم يبق هناك وقتًا طويلًا فقد سمع صوت بكاء يأتي من جهة أحد القبور القديمة التي لم يُشارك في حفرها.. اتجه إلى مصدر الصوت ليجد امرأة تبكي وتنوح على قبر ولدها.. جلس بعيدًا يراقبها فلم يكن قد رآها من قبل.

- لما فعلت هذا يا ولدي.. أما كان عليك أن تبرّ بي وبوالدك.. طيشك قد أثقل كاهلي وحرمني من نظرة البراءة التي أنجبثها.. لم أنس تلك النظرة البريئة.. كيف استطعت أن تتركني وحدي.. لما كل تلك القسوة والظيش؟ سامحك الله يا ابني العاق سامحك الله.. لمح مازن أخطبوط عجزه يسير إلى جوارها.. وهي تخرج من المقبرة جازة أذيال خيبتها وخذلانها من ولدها.. تذكر مازن العجز الذي كان

يعرفه جيّدًا فتألم.. وفكّر.. وتذكّر.

مشاعرٌ تصارعت في ذهن مازن قبل أن يتخذ قراره.. تذكّر والدته ودموعها وكدماتها.. تذكّر بكاءه وبكاء حمزة وزينب في طفولة لم تكن كما يجب.. تذكّر روان التي كانت ضحيةً لأبٍ مُتسلّط.. بدأت دموعه تجري على خديه حتّى سمع صوتًا من بعيد:

- مازن هيا.. لماذا الانتظار؟ إنّه يستحقّ المُحاكمة.. وهو يستحقّ العقاب.. ألم ترّ دموعها؟ ألم ترّ بؤسها وخيبتها؟ هيا امسح دموعك ولبي نداء واجبك الذي نصبت نفسك هنا لتأديته.

نهض من مكانه.. مسح دموعه واثّجه إلى باب غرفته في المقبرة.. دخل على عجلٍ وأحضر أدواته وخرج.. لم يكن من السهل أن تفتح قبرًا قديمًا.. قبرًا لشابٍ قبل عامٍ.. ثرى هل بقي من جسده المُتعفن ما يرضي مُحاكمته؟ ألا يزال الطعن ممكناً؟ حفر وحفر.. وتوقع أنّه سيجد هيكلًا من العظام التي بدأت بالتفكك والتحلّل بدورها.. أراد أن يستخرج أيّ عظمة وينهال عليها بضرباته ليحقّق العدل الذي اختاره دريًا وسبيلًا يعبر به إلى حبيبته الغالية.. بدأت رائحة الجسد تفوح من القبر.. استشعر الغرابة.. فهل تبقى الزائحة بعد كلّ هذا الوقت؟ أدرك اقترابه من الجثة.. ولم تمنعه الزائحة من مواصلة الحفر ولا من العدول عن فكرته.. فقد كانت قناعته بما يقوم به تفوق كلّ العقبات.. استجمع قوّته وعلى ضوء القمر وبدأ بسحب الجثة ورفعها.. كانت الجثة شبه كاملة.. مزرقة تنبعث منها رائحة العفونة ويغطيها الذود.. بلى كانت الزائحة كريهةً لا تطاق إلا أن ما يشمه مازن كان رائحةً مُختلفة.. كان يشعر برائحة أنفاس والدته

المنهكة.. متداخلة برائحة العجز الكريهة.. وذنوب الميت الكبيرة التي تستغيث للخلاص الأمر الذي أنساه قسوة المشهد.. فراح يطعن تلك الجثة.. ويشعر مع كل طعنة بالنشوة.. ويشحن قوته ليعيدها.. لا يعرف الكثير عن هذا الشاب إلا ظلمه لوالدته.. وعلى القصاص أن يكون عادلاً فقد جاءت أمه تبكي.. وتحذث عن حنانه معها خلال الطفولة.. لذلك سيكتفي بتوجيه هذا العدد من الطعنات.. وحمل الجثة المطعونة ليعيدها إلى التراب.. فاستعاد شكوكه إذ بدت له الجثة ثقيلة كأنها حديعة الموت! ارتاب في الأمر وراح يراجع ملف الموتى الذي يضعه في درج صغير داخل الغرفة.. بعد أن أعاد الجسد الميت المقطع إلى حفرة.. وأهال التراب فوقه.

في غرفته كانت الصدمة! لقد استُخدم قبرًا مختلفًا عن قبر الشاب العاق..

يا له من خطأ فادح!

كانت هي.. نعم.. هي عشيقته الشغناء من أضع طريقه في هذه الفحاكمة.. قادتته إلى الغرق في اقتتاف هذا الخطأ.. أرادت أن يعود اضطرابه فتلعّب به كما يحلو لها.. تُعطيه القوة متى أرادت.. وتُخفي عنه ما أرادت.. تتلذذ في عقابه على خيانتته لها ولذكراها.

لم يمرّ وقت طويل حتّى خرج على صوت قطرات المطر التي تُنذر بقدوم الشتاء.. سيكون الشتاء الأول بعد وفاة والده.. لم يكن عمله في المقبرة كافياً لشراء ملابس جديدة فقد ذهب راتبه الأول لسداد ديون والده.. وذهب راتبه الثاني لشراء بعض الحاجيات للمنزل وبعض المؤونة.. أمّا راتبه الثالث فقد خصّصه ليشتري بعض الملابس

الجديدة لزئب وحمزة.. فهما يخرجان أمام الناس.. وينبغي أن يكونا بمظهر جيد.. لم يفكر يوماً في نفسه فملابسه بالكاد تستر جسده.. والشتاء قادمٌ تبشّر به حبات المطر الباردة.. مشى حتى وصل إلى مُنتصفِ المقبرة حيث كان القبر الذي نبشه قبل قليل.. شعر بوطأة الذنب.. كما استبدّ به إحساسٌ بأنه مخدوع: كيف يُخطئ ويأخذ بريئاً بجريمة المذنب.. كيف يخطئ هكذا؟ كيف كيف؟

هل كانت أمّه محقّة فيما قالت له.. هل تتسلّل قسوة القلب إليه بالفعل؟ وهل تكون غاية المحاكمات التي ظنّ أنّها من أجل الحقّ والخير.. مسرحياتٌ شاذّة يستخلص فيها انتقامه من الدنيا التي ظلمته؟ هل يفعل كلّ هذا بدافع داخلي شخصي.. لا لغاية علويّة سامية؟

أواه لو يدري.. أواه لو يخبره أحد.

من بين القبور التي تستقبل قطرات المطر مذ ذراعيه للأعلى.. وأغمض عينيه وبدأ بالضراخ:

- أيّها الزب لماذا صنعت مئي هذا الوحش؟ ألم تستطع ترويض غضبي وخزني؟

ثار.. قفز وخبط الأرض بوزنه الذي ازداد قليلاً خلال الشهور الثلاثة الماضية.. فتح عينيه لتسقط قطرة ماء كبيرة على جبينه وتوقظه من وجعه ليسترجع أوهامه المريحة وأفكاره الخارقة:

- لا.. هذا وهم! أنا لست مجرمًا ولن أكون يوماً كذلك.. لقد أنصفتني الله وغرس في قلبي الجرأة لأحاكم هؤلاء الذين ضحك

لهم القدر في حياتهم فنالوا ما أرادوا من الآخرين ظلمًا وعدوانًا..
إنهم المجرمون- وهم من بطشوا وضربوا وسرقوا وانتهكوا أجسادًا
وأموالًا ثم ماتوا ورحلوا بسلام.. وأقيمت على أرواحهم الصلوات..
وكفّنوا ثم حجزوا مساكنهم تحت الأرض.. نعم أنا من سيُحاسِبهم
ومن سيوقع عليهم الحكم والعقاب.. رغم أنهم لا يتألمون ولا
يشعرون بالظعنات.. لكنهم سيحملونها إشارةً على ذنوبهم حين
يقابلون ربّهم الأعلى.. واليوم سيحمل الشهيد المظلوم ذنب أبيه..
الويل لي! بماذا أفكر؟ يا إلهي ساعدني.. فأنا لا أستطيع تحمّل كل
هذا.

بقي بين القبور يُراقب تساقط قطرات المطر.. يَنظرُ تارةً إلى
السماء وتارةً إلى الأرض.. يُراقب لحظة سقوط قطرة المطر على
رُخام القبر قبل أن تتفتت وتنتشر.. وسقوط قطرة أخرى فوق نبتةٍ
عشبية صغيرة لتلوي عنقها وترميها أرضًا.. وسقوط قطرة بعد قطرة
على تلك العنق لتتحوّل إلى حفرة صغيرة.. فتظهر الجذور الغضة
التمسكة بالثراب إلى أن تقضي القطرات على هذه الزابطة.. فلا
ثُحِم الأرض قبضتها على الجذر.. ولا يمسك الجذر أرضه بقوة..
حتى جاء الماء وصار سببًا في الموت لا في الحياة.. كذلك الأنثى
التي زوّجها والدها مُتوهّمًا أن ارتباطها من رجل ثري سيحقّق لها
الزفاهية والحياة الكريمة.. لكنّ ما حدث كان عكس ذلك فتلك
القطرة التي تُنذر بالحياة لم تكن سوى طعنة للحياة في قلبها..
وقطرة بعد قطرة ستزداد الطعنات لشافر الحياة عن روحها وتبدأ
تعاستها.. لم يُحالفه الحظ ليتابع دراسته.. أو ربّما وقف القدر ضده
عندما أراد تحقيق طموحه إلّا أنّه وظّف موهبة البحث واستكشف

الحقائق الموجودة لديه بشكلٍ فطريٍّ.. ليصبح قاضي المقبرة وسيّد الطعنات..

بدأ الضّبح يُرسلُ تباشيره بالحياة.. توقّف المطرُ ورسم مع إشراقة الشمس قوسًا قزحيًا بديعًا.. فاستيقظ مازن من غفلته ومن أفكاره التي تسبّب بها خطؤه غير المقصود.. مشى بين القبور الموجلة ليشهد على ما تدّمّر بفعل المطر.. لم يكن شيئًا يذكر.. أقفل غرفته وعاد إلى منزله ليبدّل ملابسه المبلّلة بالدرجة الأولى.. مُتمنيًا ألا يموت أحد اليوم.. فهو بحاجة ماسّة إلى الثوم.. جسده مُنهك والأرض موحلة.. ها هو يصل إلى المنزل.. لا يقوى على إخراج مفاتيحه.. طرق على الباب بلُطف فوجد والدته بانتظاره.. فتحت الباب لترى ابنها البكر مُبللًا خائر القوى وقد بدّث عليه علامات السهر والتّعب.

- أهلاً بُني.. ادخل بسرعة فالجوّ بارد.. لقد جهّزْتُ لك الحمام.. كنْث أعلم أنّ ملابسك غير كافية.. ادخل بسرعة لتستحمّ بالماء الساخن.. سأعدّ لك بعض الحساء فورًا.

استجاب لوالدته دون أن يقول كلمةً واحدةً.. أدركت حجم الدمار الذي يجتاح كيانه.. إنّه مزيّجٌ من الخوف والقلق والبؤس والعوز والخذلان والخيبة وأكثر من هذا بكثيرٍ.. أيقظت ابنها حمزة.. وطلبت منه أن يتقرّب من شقيقه ويقف بجانبه.. قلقها عليه يزداد يوميًا بعد يومٍ.. وعمله في المقبرة يعزله عن الناس.. إلّا أن ما كان يُخيفها أكثر هو رفضه لفكرة ترك المقبرة بغضبٍ:

- لقد وجدت نفسي في المقبرة فلما تُريدن مني أن أتركّها.. المقبرة

أصبحت حياتي.

- وهل تكون حياتك في مساكن الأموات؟

- بلى.. تكون حياتي.

- وأين صرنا -أنا وحمزة وزينب- من حياتك؟

- أنتم أيضًا حياتي.. لكنني في المقبرة أمارش طقوسي وأعيش
كما كنت أتمنى دومًا.

- أنت تخيفني يا بُني.. لماذا تتعمد كل هذا البعد عن الناس.. أريدك
أن تصارع الحياة وتنضج.. أن تجذب وتفشل وتتعلم.. أريدك أن
تكون قويًا قادرًا على اتخاذ قراراتك بشكل صحيح.

- لا يكون الظلم والأذى إلا عند الأحياء.. أنا أحياء مع الأموات.. وهم
طيبون معي يا أمي.. لا يطالبونني بأي شيء.. أستطيع أن أقول
أمامهم ما أشاء.. فلا ينتقدون كلامي.. ومهما أخطأت لا يحاسبونني..
بل أنا من يحاسبهم.. هل ثقة عمل يوقر كل هذه الشروط من الراحة
إلا في المقبرة.. وأنا صرْتُ حَقَّار القبور المعتمد لدى الناس.. الأحياء
الذين تحبين.. وصرت سيد المقبرة وحاكمها.. هذه منصب كبير قد
يخولني أن أتزوج ابنة السلطان.

قال ذلك لإضحاك أمه.. فهو متزوج من روان.. ولا أمل فيه لامرأة
سواها.

(16)

أدرك حمزة وزينب ما توصلت إليه والدتهما قبل ذلك وحاولت أن تحدثهما عنه.. فقد أصبح التغير في شخصية مازن ملموساً.. واستشعروا الخوف من هذا الانقلاب.. فقد صار يضحك بصخب ولا يُبالي بأحد.. وراح يمضي ليله ومعظم نهاره في المقبرة.. مر وقت طويل دون أن يسأل أخاه حمزة عن دراسته أو عن مشاكله في الحياة.. كما لم يعد يسأل زينب عن يومياتها.. وهل تمكنت من الانسجام مع صديقة جديدة بعد وفاة صديقتها.. أو عن زميلاتها في الصف ومن منهن أكثر تفوقاً.. ولا عن تحصيلها ودراستها وما تود أن تتخصص فيه.. ولم يعد يسأل عن ابتسامة والدته.. ولا عن روحها إذا شفيت من عذابات عمرها المنقضي.

استوطن الخوف في قلب الأم التي اعتقدت أن وفاة زوجها ستكون نهاية لأحزانها وقلقها وخوفها.. وكانت تظن أن الشقاء مرسوم على هيئة زوجها وصوته فقط.. إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك.. وفي الدنيا عذابات متنوعة أشدها كما تستطيع أن تؤكد هو القلق على الولد من خطر مجهول.. لا تعرف ماهيته لكنها ترى تأثيره.. إنه يعيش داخل مازن.. وحش أعتى من والده وأكثر خطراً.. وحش لم يضربها مساءً وهو ثمل كي ينالها غصباً وهي تبكي.. لكنه يستتر في شكل ابنها الحبيب ويعدها بتعذيبه وحرق قلبها عليه.

اختفت تلك الأيام التي ظنت خلالها أن مازن سيكون سنداً لها ولحمزة وزينب.. وأن أصوات الضحكات ستتعالى ولن يغيب الفرح عن هذا المنزل حتى يُزيل كل الهموم والأوجاع.. ويمحو الذكريات

الأليمة التي تشاركوها جميعًا.. لكن الحقيقة صعبة ومرة.. لقد بدأ ولدها بالانسحاب من جبهة الفرح.. ربما لأنها لم تكن أصيلة في حياتهم.. وربما لأنَّ القدر لا يزال واقفًا يتربص بها.. ويسزب لها رويّدًا رويّدًا ما بقي من رصيد أحزانها وآلامها.

خلال حياتها مع زوجها كانت تعرف دائمًا سبيل الخلاص لكنها لم تستطع أن تسلكه.. كانت تفكر أحيانًا أن تحتضن أولادها وتخرج من هذا البيت إلى أرض بعيدة.. لم تصل الفكرة إلى مرحلة التخطيط لتحدد وجهتها بعد الزحيل.. لكنه كان حلاً.. كانت تترتاح عندما تتخيل نفسها في مكان بعيد.. لا يمكن لزوجها المرعب أن يعرفه أو يصل إليه.. تجمع القليل من الارتياح باسترسالها في حلم اليقظة هذا.. ثم تعود إلى واقعها أكثر قدرة على الاحتمال على أقل تقدير.. لم تحاول اللجوء لوالديها قبل أن يموتا.. ولا لإخوتها بعد ذلك.. كانت تحاول أن تعبر دربها الشائك بأقل قدر من الضجيج.. الطاعة مطلوبة إذا كانت منجاة.. الضمت والقبول.. ومن أجل الحصول على مُتعتها الوحيدة كانت تغفو مفتوحة العينين قبل الظهر.. عندما تنتهي من أعباء المطبخ وقبل أن يعود أفراد أسرتها بساعة أو أكثر.. لتتفرغ للأحلام الهائلة.. حيث لا زوج.. ولا إهانات ولا بشر.. عالم أبيض خالي إلا من الأزهار والفراشات.. تعيش فيه مع أولادها الثلاثة غير خائفة.. ولا شيء مطلوب منها تحت طائلة الضرب الفبرح الذي طالما كانت تلقاه من زوجها.

تعيش اليوم خطرًا مختلفًا تتمنى لو كان يشبه خطر زوجها.. كي تفهمه على الأقل وتبادر إلى الهرب فقد أصبحت كما أصبح أولادها أكثر قوة.. تتمنى لو أنها في الجانب نفسه مع مازن.. إلا أنها تستطيع

أن تشعر بأنه صار في جانبٍ آخر.. وأنه أبحر بعيدًا إلى مكانٍ مخيف.. فيه قبور.. وأجساد ميتة.. وتهيئات وهلوسات يُفلت دون قصدٍ بعض الكلمات عنها إذا استطاعت أمه أن تُقنعه بالجلوس معها.

لكنها ستحاول.. لم يفت الأوان بعد.. ستستعيد ابنها من تلك العوالم.. ستتبّع طريقة الأمهات الوحيدة.. والناجحة دومًا.. الحب والعطف والحنان.. حتى لو تحوّلت إلى مجرّد دموع تغسله ممّا علق فيه.. فمحنته الحالية نتجت عن رغبته في حماية الأسرة من شبح العوز.. ولولا ذلك لظلّ شابًا عاديًا يحاول أن يشفى من قسوة أبيه.. ويرتاد الجامعة ويعمل بعد ذلك في وظائف طبيعية.. نهارًا فقط ومع الأحياء.. ستعيده أمه إلى هذا الدرب.. وقد بدأت في ذلك فعلاً.. إذ لجأت للعمّ ثامر في وقت مبكرٍ من صباح الأمس.. وتوسّلتُ أن يُساعد ابنها في ترك المقبرة والعمل كحقالٍ في سوق الخضار.. أو كسائقٍ شاحنة.. وقد وعدّها خيرًا.

ستجد الأم حلاً دون ريب.. فلهذه الغاية كانت الأمهات.

خرج مازن من الحمام يرتجف من البرد.. لقد وجد المرض جسداً يسكنه منذ الليلة الأولى للشتاء.. شرب حساءة الساخن فاسترخت أشواك حلقه التي كانت مستعارة.. ثم تناول قرصين من دواءٍ مقشّع وخلد للنوم.. فنادت الأم لحمزة وزينب كي تحدّثهما وقالت:

- أبنائي إنني أشعرُ بالسوء حيال مازن.. لم يسبق لي أن رأيته يومًا بهذا الشكل.. في كلّ الأوقات العصيبة أثناء حياة والده.. ومهما كنت حزينة.. كان لي السند والداعم.. والأمل بالنجاة.. لقد كان يهزج وهو في عزّ يأسه وبؤسه كي يرسم ابتسامةً على وجهي.. لكنني اليوم

قلقةً عليه كثيرًا.

قال حمزة:

- إنك على حق.. وضع أخي مثيرًا للقلق.. فهو لم يعد يسألني عن مشكلاتي أو يطمئن على أحوالي.. وقد كان لا ينام في كل ليلة حتى يدخل غرفتي ويدفعني لقول كل شيء.. حتى ما كنت أحاول أن أخفيه عن الجميع وأبقيه سرًا لنفسي.. كان لا يكلّ حتى يعرف كل أسراري ويساعدني على التعامل مع أدقّ وأعقد مشاعري وتفصيلي.. لكنه اليوم يعيش كطيف في هذا البيت.. يبدو منشغلًا طوال الوقت.. وفي عجلة من أمره دائمًا كي يذهب إلى المقبرة.. بدعوى حفر قبر جديد.. حتى عندما لا نسمع أيّ نبأ عن وفاة في القرية والقرى المجاورة.

توثر ملامح زينب وقالت وهي تكتم غصة:

لم يعد يهتم لشؤوني الخاصة.. هل وجدت صديقة جديدة؟ هل عاد زملاء صفّي لمضايقتي بالسخرية والتنقّر.. كان سيحاول إنقاذني في الماضي.. لكنه اليوم لم يعد هنا.

قالت الأم:

- أنا واثقة من أنه ما يزال يحبنا.. ويهتم لأمرنا.. ولكنه يمرّ بأشياء غريبة لا نعرف عنها شيئًا.. إن صحبة القبور تورث الضرر.. وتبعد المرء عن حياته.. علينا أن نستعيد من هذا العالم وأن نكون خلال محاولتنا هذه في غاية الحذر كيلا يشعر بنا فيبتعد ويفقد ثقته ونخسره بشكل نهائي.. قلبي يشتعل نارا وأنا أراه يبتعد شيئًا

فشيئًا.. أحاول أن أمسك به.. لكن ذراعي لا تصلان.. علينا أن نتعاون
لنستعيدة.

بكت الأم بصمت.. وانهاث دموع زينب الحبيسة.. فكان على حمزة
أن يأخذ دوره في طمأنيتهما.. وأن يفكر بصوت مرتفع قليلًا كي يجد
حلًا.. ويوقف سيل المشاعر المتدفقة عند أمه وأخته.

- من الصعب أن نعرف سبب ما يحدث له.. فهو لا يجلس معنا أبدًا..
تأخذ المقبرة جل وقته.. ما رأيكما أن أزوره هناك.. وأن أسهر معه في
المقبرة كي أتقرب منه لعلّي أفهم ما الذي يجري معه ويسبب له كل
هذا البؤس.. والانعزال عن البشر.

ارتعبت زينب من الفكرة.. وقالت:

- ليتني أستطيع مرافقتك في هذا يا أخي.. لكنني أخاف من
القبور.. وأحاول منذ موت روان ألا أفكر بالموت.

تعرق وجه زينب وتبقّع باللون الأحمر.. يا لهذه الطفلة المسكينة..
إن ما عاشه قلبها الصغير يفوق قدرة أترابها على احتماله.. ينبغي
ترك الطفلة تشفى من جروحها العميقة والاعتماد على شيء آخر.

قال حمزة:

- لا عليك يا حبيبتي زينب.. كنت أعني أن تظلي مع الأم هنا في
المنزل.. أنا وحدي من سيزوره.. وهو سירתاح لشخص واحد كي
يشاركه ما يحدث معه.

قالت الأم:

- أرجو ذلك من كل قلبي.. حاول يا بُني حاول أن تعرف.. ابذل
جهدك كي تطمئن عليه وتطمئن قلبي.

- أمرك يا مولاتي.

كان على حمزة أن يملأ فراغ مازن في البيت.. ويزرع الزاحة
والابتسامة على وجهي أمه وأخته الحبيبتين.. وهو الفتى الذي
لم يكمل مرحلته الثانوية بعد.. بات الأمل الوحيد لاسترجاع سند
الأسرة وجدارها.. وحصنها المنيع وأمل نجاتها.. صارت مكلفًا بالنيابة
بكل مهمات مازن العائلية.. بالإضافة إلى المهمة الخطيرة والكبيرة
في استرجاعه من حيث يكون.. قبل أن يضيع بشكل نهائي فتخسر
العائلة رجلها الكبير.. ويخسر هو شريك العذاب وأمل القادم.. سنده
وأخاه الأكبر والأوحد.

انتهى حديث الأسرة على أجمل ما يكون الحب العائلي.. شعروا
أن حل المشكلة قد بدأ منذ هذه اللحظة.. فتضاحكوا بخجل.. على
الرغم من ظلال القلق المتبقية في نظراتهم خوفًا على الشخص
الذي زينب بمستقبله ليؤمن لهم عيشًا كريمًا.. وعاف أحلامه في
الدراسة الجامعية وعلاقاته الطبيعية التي قد تزدهر فتصبح نزاهات
وأحاديث وفرص.. ورضي بعمل لا يشبه أي عمل حتى يعوضهم عن
الوالد الغائب.. وعن القسوة التي نالوها منه قبل موته.. ولم يقصر
في أداء واجبه.. حتى أمّن للجميع ملابس الشتاء الدافئة ونسي
نفسه.. قد يكون مرضه في هذا الوقت من مصلحته عسى أن يقعه
عن المقبرة.. بينما يجد أخوه حمزة حلًا ما.. كما سيبذل الجميع ما
بوسعهم لنجدته ومساعدته.

لم يكن مازن منتبهًا إلى كل هذا التغير الذي ظهر عليه جليًا وسبب القلق لمن حوله.. كان هاجسه في هذه المرحلة أن يتلذذ في مُعاقبة الجثث وأن يقضي وقته أحيانًا وحيثًا يلقي تلك الأبيات الغزلية للشعواء التي كانت تطلب منه ذلك ؛ فقد صار هذا العمل مُثيرًا.. وباتت نشوئته تدفعه للبحث عن ماضي الأموات الذين ساقتهم أقدارهم إلى مقبرته.. باحثًا في أدق التفاصيل ومتابعًا أوهى الخيوط كي يجد ذنبًا سقط من فم أحد الأبناء أو الأصدقاء.. حتى لو كان صغيرًا لا أثر له.. يحاول مازن أن يضخمه.. وأن يبني سيناريوهات افتراضية لما كان من الممكن أن يحدث نتيجة له.. وقد وصل به الأمر أن ينبش قبر أحد الرجال الذي سبق أن عاقبه.. ليعاقبه من جديد على ذنب آخر سمع به لاحقًا.. أَلِفَ مَرَأَى الجثث المشوّهة والزوايح المنقّرة.. ووسط دهشته الكبيرة.. وجد نفسه في إحدى المرات يستنشق الزائحة العفنة وهو يبتسم كأنه يستنشق المسك.. وقَرَّر أن يشرب فنجان قهوة قرب الجثة عازمًا أن يبتاع علبة سجائر لاستكمال لذته في المرات القادمة.

كانت إنسانيته تواجهه محنة غير مسبوقة.. فهو في الواقع لا يؤذي أحدًا.. ولا يوافق على الظلم الذي أوقعه موتاه على أهلهم.. ولا يرجو غير العدل من كل الفضائع التي تقوم بها يداه وفأسه.

نام مازن طويلاً.. كان يحلم بالجثث والفأس.. ويحلم بزيارة مفاجئة قام بها حمزة إلى المقبرة.. وعندما رأى ما رآه ركض هاربًا.. وكان مازن يحاول أن يطمئنه.. وأن يشجعه على العودة كي يسهر معه ويسكن إليه.. وراح يجري خلفه وهو يحمل فأسه.. وعندما لم يستطع إدراكه رمى بالفأس إلى الظلام.. وسمع صرخة الموت من

فم أخيه.. فاستيقظ على صوتها مجفلاً.. واحتاج بضع دقائق حتى
تمكن من تنظيم تنفّسه.

فتح عينيه على وسعهما ونظر إلى السقف.. كان وجهه شاحباً؛ بعد
أن نام اثنتي عشرة ساعة وبضع الساعة.. لم يكن قد نام عدّة أيّام..
وساعده دواء الزّكام على السبات العميق.. يبدو أن المطر قد توقّف..
وهذا وقت العصر اللطيف.. وهو في غرفته في البيت.

نقل بصره في أرجاء الغرفة ليقف عند النافذة التي طالما كان
ينظر من خلالها إلى الحياة خارج سجن والده وهيمنته.. مضى
وقت طويل على ذلك.. لم يعد يشعر بشيء من هذا.. رأى عبر النافذة
تمايل أوراق شجرة الحور الشامخة على ألحان الزيح الخفيفة أمام
المنزل.. وسمع صوت حفيفها عندما يضرب بعضها ببعض الآخر..
شبه هذا الإيقاع لصوت العصافير التي اتخذت من الشجرة ملجأ..
كان دومًا يُنصت إليها ويراقبها من هذه الزاوية.. كم مضى من الوقت
على موت الوالد الذي غير خطّ القدر يا ترى؟ سأل نفسه ولم يكثر
بإيجاد الجواب.. ثم نهض من سريره واثّجه إلى النافذة مشتاقاً إلى
تلك اللحظات.. ما تزال الشجرة في مكانها وما يزال المشهد كما
هو.. تتساقط تلك القطرات التي علقت على أوراق شجرة الحور
مع نسيمات الهواء.. ودون أيّ عناء تتمكّن هذه النسيمات أن تجعل
من المشهد لوحةً حيّة.. أوراق تُصَفّق وقطرات تنهمر فتواجه نسمة
أخرى تقودها إلى غرسة هنا وغرسة هناك وربما تلتطم بأرض صلبة
وتذهب دون فائدة.. أخذت الأرض كفايتها من المطر وبدأت السيول
تجرف أوراق الشجر المتساقط.. التفت إلى وراءه يتفقد الغرفة..
وقال في نفسه:

«كُل شيء على حاله.. لم يتغير شيء فيها سواي.»

نظر إلى الساعة.. ها قد حان موعد العمل وعليه الذهاب.. لبس ملابسه وخرج من الغرفة ليجد والدته وحمزة بانتظاره.. سأله أمه:

- كيف حالك يا بُني.. هل نمت كفاية؟

- الحمد لله.. نعم لقد استغرقت في النوم.. أشكرك يا أمي على الحنان الغامر.. لا شك أنك أجبرت حمزة على الهمس والسير على رؤوس أصابعه كيلا يوقظني.

قال حمزة مبتسمًا بامتنان ولطف:

- شكرًا لك أنت على ما تقوم به وما تحتمله من أجلنا.. هذا أقل ما نستطيع القيام به.

احتضن مازن والدته وقبلها راسًا ابتسامة على وجهها.. ثم توجه إلى شقيقه حمزة ليقوم بتقبيل رأسه واحتضانه.. وسأل عن زينب وهو يبدي أسفه لانشغاله عن الجميع في الأيام السابقة.. كانت زينب مستلقية في سريرها تحاول استذكار بعض الدروس.. فذهب إليها ليقبلها ويمسح على رأسها قبل أن يخرج إلى العمل.

طلبت والدته منه اصطحاب حمزة معه إلى المقبرة.. فهو مريض وقد تسوء حالته.. كما أعطته سترة سمكة كانت لوالده ولم يقم بمبادلتها بزجاجة مشروب كما فعل مع بقية ملابسه.. وافق على ارتدائها وكانت على مقاسه تقريبًا.. لكنه رفض اصطحاب أخيه معه.. وقال مبزًا بشكلي قاطع:

- حياة المقابر لا تليق بأخي.. سيُصبح حمزة في يوم من الأيام طبيبًا أو مهندسًا ولا علاقة له بالعمل في المقابر.. لقد اعتدتُ على العيش هناك.. ولكنَّ حمزة ما يزال غُضًّا.. وعليه أن يحضّر لامتحان الشهادة العائويّة في نهاية هذا العام.. وبعد ذلك سيكون أمامه الكثير ليقوم به فلا تُقحميه معي في ذلك المكان.

لم يكن أمامها خيار.. فقد كان حديمه سليقًا.. وحجّته منطقيّة.. قبلته قبل ذهابه مرّةً ثانيةً وراقبت خطواته الواثقة.. لم تكن خطواته يومًا بهذه الثّقة.. كان ذاهبًا إلى عالمه وإلى أصدقائه الأموات الذين رأى فيهم السّكينة واستطاع البوح بما يشعر وما يُعاني وما يرغب في تحقيقه.. استطاع في عالمهم الغريب أن يعيش كما لم يَعْرِف العيش من قبل.. ذهب لبدأ رحلة البحث عن جثة هذه الشّهرة.. عليه أن يجد شخصًا استحق الموت فمات.. لكنّ موته هذا لم يروِ فؤاد من ظلمهم قبل أن يموت.

كانت ليلة صافيةً تعد بالكثير.. وكان برد الشتاء الخجول متردّدًا في تقدّمه.. لكنّ السّترة المصنوعة من طبقات الصوف الطبيعي جعلت مازن مرتاحًا.. فقال لنفسه: ها قد فعل والدي أخيرًا شيئًا مفيدًا.

(17)

قرر حمزة أن يتبع أخاه مازن إلى المقبرة بعد ساعة من ذهابه.. كان الطريق موحشًا وقد استبدت بحمزة الأفكار والتصورات المخيفة.. لم يستطع إكمال طريقه في هذه الليلة.. فهو لا يزال يافعًا وقد تسلل الزعب من المقابر إلى عقله وشل إرادته وتفكيره السليم.. عاد إلى المنزل وقدر أن يذهب في اليوم التالي باكراً قبل حلول الليل.

تنامت الغابة المجاورة للمقبرة والمسيرة للدرب الواصل بينها وبين القرية.. وتلاقت أطراف الأشجار الكبيرة من الضنوبر والسنديان حتى شكلت خيمة فوق تلك الأرض.. تحجب عنها الشمس والثور.. هنا يحل الظلام باكراً.. ولا يمكنك أن ترى السماء.. كان على حمزة أن يجتاز تلك الغابة الصغيرة القابعة على أطراف المقبرة ليصل إلى شقيقه مازن.

لم يعد مازن في اليوم التالي إلى بيته.. توفي رجل عجوز في الصباح الباكر وكان على حقار القبور أن يقوم بعمله.. وصل العم ثامر إليه باكراً وأنبأه بالخبر.. وكان المتوفى عجوزاً متقاعدًا يعمل مهندساً في إحدى الشركات.. ترك العم ثامر الموضوع الذي أراد فتحه مع مازن إلى وقت لاحق.. فعليهما الآن أن يُنجزا العمل كما ينبغي.. ولكل عمل أصول وتقاليد.. اختار مازن موقعاً رآه مناسباً ليحفر هذا القبر.. ليكون مكاناً يلائم جثة العجوز؛ فالجثت أيضاً تتمايز فيما بينها بما فعل أصحابها وما ملكوا.. وما تركوا وما أنفقوا.

وهكذا بدأ الحفر وهو يطرق السمع ليجمع من أحاديث الأقارب

المُتشحين بالسّواد ما ينبئه عن أخلاق العجوز وعن ذنوبٍ اقترفها
أو ظلم الحقّه بالناس.. كان في شوقي كبير لكل كلمة سيئة تشير إلى
خلقٍ غير محمود.. وقد أطربث أذنيه بعض الأقاويل .. قيل إنّ هذا
العجوز استغل مكانته الوظيفية وكان يقوم بتزوير بعض الوثائق
للاستيلاء على حقوق الناس وسرقة ممتلكاتهم دون وجه حق.

تابع العمل صامتًا وهو يفكر بالفحكمة المرتقبة.. لن ينجو هذا
الظالم من قبضتي سأسحق جسده الهزيل ولن أرحمه على ما اقترفه
بحق الناس.. إنّه شيطانٌ على هيئة بشر.. كانت أذنا مازن ثنصتان
إلى الكلام.. وذهنه يعالج المعلومات التي تصله تباغًا.. وكان من شدة
رغبته في إقامة المحاكمة يكاد يثهم الميت بأنه اختار توقيئًا سيئًا
لرحيله.. لكن لابد من المحاكمة.. استلقى مازن في غرفته قليلًا ريثما
يرحل الابن المكلوم.. ويحل الليل.

بدأت الشمس تغيب والعتمة تجتاح المكان.. خلت المقبرة أخيرًا
من الزّوار.. تسارعت ضربات قلبه وتصاعدت أنفاسه.. هل يجب أن
يفعل ذلك مرة أخرى؟ انتابه إحساس غريب فجسده يطلب النشوة
ولكن ليست أي نشوة فقد بات متعطشًا للظعن والانتقام.. تتصارغ
أفكاره في لحظة ليزور قبر روان ويُناجيها.. لم يعتد على زيارة قبر
والده كما اعتاد على زيارة قبر روان دون جدوى.. فقد أصبحت
أطياف الموتى تتحدث إليه إلا أن طيف روان لم يعد يحضر.. ولم
يعد يستطيع أن يكلمها ويسمع ردها كما كان من قبل.. هل تراها
غاضبة منه؟ هل تريده أن يتوقف عن إجراء المحاكمات.. أم تريده
أن يعمل عليها بوتيرة أكبر؟

إنها فتاةٌ حكيمةٌ دون شك.. ولا تقبل بالظلم.. ربّما تلومه فقط على غيابه بالأمس.. وعلى تباطؤه في إتمام مهامه بعقد المحاكمات.. صاحب بكلّ قوّته:

«سأفعل كلّ شيءٍ لأجلك يا روان.. سأنتقم لك ألف مرّة»

أنهى مُناجاته لروان وانصرفَ يحضّر لمحاكمته.. كان المطر قد هطل قليلاً قبل ساعة.. ما جعل تربةَ القبر طريّة.. وأغصان الزّيحان مبتلةً.

كانت كلماته مع روان تُثيرُ غيظَ تلك الشعناء التي تسكنه:

- لن أتركك هنا يا مازن.. ستنالُ قصاصك كما تُحاكم هؤلاء الموتى.

تلمس التراب الموحل وبدأ بالحفر.. أخرجَ جثةً ذلك العجوز الذي لم يلبث في قبره يوماً على الأقل.. سحبها إلى الشجرة التي اعتاد أن يعلّق ضحاياه عليها وبدأ بالمحاكمة.. أخذَ ينهال عليه بالطعنات والضّرب والزّكّلات وتمزيق جسده بذلك الفأس الذي لا يعرف للرحمة معنى.. أعاد تلك الجثة المشوّهة بفعلته إلى القبر وبدأ بدفنها مع إلقاء بعض اللعنات عليها.. عاد لغرفته ليأخذ قسّطاً من الراحة بعد محاكمةٍ استنفذت طاقته ما إن رمى نفسه على السرير وأغلق عينيه راحث به ذكرياته إلى الطفولة.. ها هو ابن السّنوات السّت.. يلعب بالوحل أمام المنزل بعد هطول المطرة الأولى.. كان يشعر بالبرد وهو يرتدي أسماًلاً صيفيّةً بينما يقترب الشتاء.. كان اللعب بالوحل يسعده ككلّ الأطفال.. استعداد إحساسه برائحة ذلك الوحل لتوقظه صرخات والده:

-مازن أيها القدر.. ماذا تفعل بالوحد هنا؟ ألا تنظر لنفسك؟ إنك مدعاة خجل ووجه نحس! هيا ادخل واستحم أيها الأحمق.

أمسك حفنة من الوحد وأخذ يضغط عليها وشيئا فشيئا اعتصر ما فيها من حياة.. نظر إلى ما تشكل في يده.. أمعن النظر ثم بدأ يشم رائحة الثراب الموحل.. أخذ نفسا عميقا ملاءة بالكراهية والحق على والده.. ملأ رثتيه بتلك الزائحة لتكون حجة حاضرة للمحاكمة.. ومن دون أدوات أخذ يحفر بيديه ويتفتن بتشكيل الوحد.. كانت متعته مضاعفة.

في وقت مبكر من ذلك المساء قرّر حمزة الذهاب إلى المقبرة.. استجمع قواه وأحضر ما يمكنه من الدفاع عن نفسه كما أحضر مصباحا ليكشف به طريقه.. ودّع والدته وزينب وأخذ ما يلزم لسهرة الأشقاء من مشروب وفاكهة وانطلق.. كان يمشي رويدا رويدا إلى أن وصل إلى أطراف المقبرة.. غابة كتيمة وأصوات الضفادع التي استدعاها المطر تملؤ المكان.. وبين هذا وذاك كان يجتاح المكان صوت تضارب أوراق الأشجار بفعل النسمات التي يشتد هبوبها في هذه الساعة من المساء.. ألف خيال حمزة مشهدا سينمائيا أبطاله ورقات الشجر الضخمة التي تملك عيونًا للنظر وفقا للكلام.. وكأن شجارا ما يجري .. ومعارك لا تنتهي تقوم بينها.. بدأت أصواتها تتعالى وكل واحدة تلطم رفيقتها بشكل مسرحي ومضحك.. حاول حمزة أن يستدعي كل إمكانيات المرح والضحك لديه كي يهذي من روعه ويخفف رعبه.

تسارعت خطواته حتى وصل وجهته.. كان الظلام دامسا ولم

يكن هناك أي ضوء إلا مصباحه وضوء غرفة مازن على الطرف
العاني من المقبرة.. أطفأ مصباحه واثجه إلى غرفة شقيقه.. كانت
الأرض موحلة فتناقلت خطواته لما علق على حذائه من الوحل..
انتابه إحساس غريب عندما سمع صوت لهاث آت من بين القبور..
شيء ما جعله يلتزم الصمت ولا ينادي لأخيه مازن.. لم يتمكن حمزة
من أن يتمالك أعصابه فهو لا يزال يافعًا.. انتظر قليلًا باحثًا في
جهة الصوت ليعرف مصدره.. حتى ظهر مازن أمامه ثائر الشعر..
متناقل الحركات.. وكان يسحب شيئًا ثقيلًا.. ثرى ما هو؟ تساءل
حمزة بصمت وأغلق فمه بيديه الاثنتين كي لا يصرخ من الدهشة
والخوف.. بقي صامئًا جاحظ العينين ينتظر أجوبة على تساؤلات
أحرق كل اللحظات الجميلة بين الشقيقين.. من هذا وماذا يفعل؟

سحب مازن إحدى الجثث من القبر.. تنفس بقوة.. وهو يقف
محاولًا استعادة قوته.. أمتار قليلة بعد حتى يصل إلى الشجرة التي
يعلق عليها الجثث.. تجفعت السحب السوداء في السماء وتشابكت..
قرر مازن الاستعجال في قراءة الذنوب حتى ينزل العقوبة فور
وصوله موقع الطعن.. لأن المطر سيهطل قريبًا.. وربما سيمنعه من
إتمام مهمته كما ينبغي.

حمزة الذي يكفيه ما به من رعب يكاد لا يصدق ما ترى عيناه..
هذا أخوه يجر جثة متشقة الكفن.. مغطاة بالوحل.. يسحبها بجهد
كبير وهو يحمل فأسًا في يده الأخرى.. يقف ليلتقط أنفاسه ثم يتابع
إلى وجهة مقابلة لمكان حمزة.. يبدو متعجلًا كأنه خائف من شيء..
أو كمن أجل هذا العمل طويلاً وعليه إنهاؤه قبل أن يفوت الأوان..
أنصت جاهدًا أن يسمع شيئًا في صمت المقبرة.. وكان مازن يقول

كلمات واضحة وجمل مترابطة كأنه يخاطب حيًا.. لكن حمزة لم يفهم من عباراته الكثير.. كان يقول:

- كنت تعتقد أن الأمر انتهى بموتك أيها القدر؟ أنا هنا لأريك شيئًا من العذاب الأقسى الذي ينتظر روحك فأكشف آثامك أمامك.. ها قد جاء وقت حسابك.. وقف مازن عند هذه النقطة قائلاً بصوت مرتفع.. «سأنقذ الطعن هنا.. فالزعد ينذر بقرب العاصفة»

كانت الجثة على الأرض.. ورفع مازن فأسه كي يلقيه بقوة عليها.. لكن صرخة مدوية انبعثت من حمزة المصدوم.. تلاقت مع صوت رعد هائل تلاه برق كشف المكان.. وضع حمزة يديه على فمه.. وكنتم ما تبقى من صراخه.. وتلظى بين الشجيرات القريبة كيلا يراه مازن.. هذا الذي سمع الصوت.. متلبسًا بالزعد.. وبدا في ضوء البرق مجنونًا مجرمًا يرفع الفأس لقتل شخص ما.. ألقى فأسه من يده بعد أن بدأ المطر.. وعاد بالجثة الناجية من محاكمة ظالمة إلى قبرها الذي أصبح بركة مائية.. أهال التراب من جديد وأعاد كل شيء إلى مكانه.. وقفل إلى غرفته يملؤه الغيظ.. عازمًا أن يرجئ العقاب إلى وقت آخر.. لكنه لم ينفذه بعد ذلك أبدًا.

كان حمزة يبكي بحرقه.. لم يكن يبكي بمعنى الكلمة.. فقد كان ذاهلاً مستغربًا ودموعه تجري بغزارة المطر.. والغضاث المكتومة تحرق حلقة وجوفه.. راقب أخاه وهو يدخل غرفته فنهض هاربًا مما رأى.. حاملاً معه ألف سؤال.. لمن هذه الجثة.. ولماذا فعل مازن ذلك بها؟ هل له ثأر مع صاحبها أو ما شابه؟ ومن أين امتلك هذه القسوة؟ ركض مسرعًا كي لا يراه مازن.. قطع الغابة دون أن يشعل مصباحه

فلم يعد خائفًا من القبور المغلقة.. ولا من الليل والأشجار المتعاركة بأوراقها.. ولا من العاصفة التي تزار مقتربة.. ما رآه أعظم وأكثر إيلافاً من أي خيال رعب.. ولا قصة مخيفة تضاهي ذلك.. والبطل الشَّير هنا هو مازن.. الأخ الأكبر المضحي المحب.. وصاحب الدعابات الخفيفة والضحكات المعدية.

شعر بالخوف يكتسحه.. خوفٌ من شيء لا يفهمه.. والخوف مقترنٌ مع الجهل بعلاقة سببية.. وصل إلى مشارف الحي.. وقف على حافة الرِّصيف.. انحنى وجلس أرضاً.. لا يزال غير مصدِّقٍ لما رأى.. أو بكلمة أصدق: إنَّ عقله لم يتقبل ما رأى.. بدأ يُفكِّرُ بذهنه المُشوش دون جدوى.. لم يصل إلى نتيجة أو تصرُّفٍ يمكن أن يقوم به.. فكَّر في صورة مازن السند الذي طالما كان قدوةً له ولزَيْنب.. والآن ماذا سيفعل؟ هل يُخبر الأم؟ ارتجف جسده رفضاً لهذه الفكرة.. فهي لا تستحقُّ هذا العذاب.. لا تستحقُّ أن يكون ولدها متورِّطاً بكلِّ هذه الأمور.. نهض من مكانه واتَّخذ قراره بالكتمان حتَّى يستطيع معرفة ما يجري لشقيقه.. ذهب إلى المنزل حيث تنتظره والدته بفارغ الصبر.. الشحوب بادٍ على وجهه وعلامات الخوف والوحشة منعكسةً على مُحيّاه.. يتصبب منه العرق ويُغطّي الوحلُ قدميه كأنه غرق في بركةٍ منه.

سألته متلهفةً:

- أهلاً بني.. ما الذي أصابك؟ هل حدث لك سوءٌ هناك؟ وهل مازن بخير؟

أجابها كاذباً:

- آه أمي لو تعرفين.. أخي مازن بأحسن حال.. لم أجده على هذه الحال من قبل.. أنا بخير لكنني وقعت في طريقي فلم أتابع إليه.. أعدك أن أسهر مع مازن غدا.. ولكن لا تخبريه بسقوطي على طريق المقبرة كيلا يهزأ بي وبضعفي ومخاوفي من الظلام.. عديني يا أمي ألا تخبريه.

ضحكت بخجل مخافة أن تجرحه ثم قالت:

- أعدك يا حمزة.. على شرط وحيد.. ألا تفوت سهرتك عنده غدا فقلبي يغلي عليه.. وأريد أن تنطفئ هذه النار.. شيء ما في داخلي يشتعل كلما تذكرت اسمه أو وجهه.. وأخشى أن يُصاب بمكروه.. أرجوك يا بني رافق أخاك.

احتضن حمزة والدته بغضبة قد حبسها في صدره الذي ملأته المفاجآت.. ثم دخل إلى غرفته وعاد للبكاء.. كم تمنى أن يكون ما شاهده كابوسا لن يتحقق.. أو أن يتحقق شيء منه.. جزء أقل يتقبله مهما كان قاسيا.. غلبه الثعاس والتعب وهو على هذه الحال.. فأسدل جفنيه واستسلم للنوم.. وعلى صوت العصافير التي تسكن في شجرة الحور.. وتتغازل أو تتجادل بصخب في كل صباح؛ فتح عينيه ناظرا إلى سقف غرفته.. تذكر ما شاهده في الليلة الماضية.. أصابه الوهن والكسل فشعر بنفاد طاقته وحيويته أكثر من أي وقت مضى.. نهض ببطء وتناول كأس الماء.. شرب رشفة منه وكانت غصة حلقه وأشواكه تمنعه من لذة الارتواء.. اتجه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى الغيوم البيضاء وهي تتكشف عن زرقة السماء.. وإلى شجرة الحور التي تتمايل أغصانها بنعومة على عكس الليلة السابقة..

وٹصدُرُ صوٹًا جمیلاً طالما كان أخوه مازن یستمع به.. تذكر الصورة الجديدة لمازن وارتجف عندما سمع صوته وقد عاد من عمله وألقى التحية على أمه وزینب.. ارتبك حمزة وساورته نفسه بأن یُصارح مازن بما رأى إلا أن دخول شقيقه إلى الغرفة بابتسامته العريضة بشكلٍ طبعیّ جدًا كأن شيئًا لم یکن.. أثار دهشته وقلقه في الوقت نفسه.. لم یکن الأمر سهلًا فالفكوت معه في غرفة واحدة أصبحت فكرة تثير الرعب في قلب حمزة.

- أما زلت تحب أصوات أوراق شجر الحور؟ إنني أستمع إليها الآن..
هلا شاركتني؟

- نعم ما أزال أحبها.. لكنني لم أعد شغوفًا بها.

- وكيف یمكننا استرجاع الشغف المفقود؟ كان تعلّقك بشجر الحور جزء منك.. وما ظننت أن أراك بدونه.

- لا عليك فقد اعتدت على حیاتي الآن.. وصار لي شغف آخر لا یمكنني تركه.

- ماذا تقصد؟ أنا أحاول مساعدتك كصديق ورفیق محنٍ قبل أن أكون أخًا.

- لا أحد یمكنه مساعدة أحد.. نحن نتساقط على جانبي الطريق كل في وقته.. ولا یستطیع أحد مرافقة أحد ولا الوقوف إلى جانبه.. لقد أصبحت الحياة كريهة.

- لماذا تبدي كل هذا التشاؤم.. لم أعهدك هكذا حتى في حضرة أبي ونوبات غضبه.. ووسط كل البؤس الذي عشناه معًا لم تقل ذلك أبدًا.

- لقد تغيّرت الظروف يا حمزة.. كما أنّي تغيّرت أيضًا.. وأصبح
أنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة.

- بدأت أشعر بقسوتك.. ولم أعد أتمش الحنان في قلبك.

فوجئ مازن بكلام حمزة.. وقال بينما تبدو الحسرة على ملامحه:

- لا تقل هذا.. هذه الصفة تهينني ولا أقبل أن أوصف بها.. ربّما
أدخلت حياة المقابر شيئًا من القسوة إلى قلبي.. إذ ينبغي عليّ في
هذا العمل أن أمتلك الشجاعة والجرأة كي أرافق الأموات دون أن
أخاف.

- أتمنى أن أكون مخطئًا في هذا الشعور.

نظر إلى النافذة راغبًا بواد الحديث الذي لن يغير من الحقيقة شيئًا
ثم قال:

- بالمناسبة أرغب في زيارتك في المقبرة ولكن كما تعلم أنا أخاف
السير في العتمة.

ضحك مازن من قلبه مستحضرًا من ذاكرته تلك الأيام والليالي
الهائلة.. عندما كانا يمضيان الليل ساهرين.. في غفلة عن والدهما
وقسوته.. يحاولان استخراج المرح من أقصى الكآبة.. فيضحكان
كمن يقتترف ذنبًا ويكتمان الضحك بانتفاخ الخدود واندفاع الدموع.

- آسف على هذه الضحكة.. ما رأيك إذا في أن نذهب إلى هناك معًا.

- بالطبع.. فهذا ما كنت أبتغيه.

أراد حمزة أن يُبعد عن ذهن مازن أنه كشف سرّه.. وبالطبع لم

تخطر هذه الفكرة على بال مازن حتى الآن.

(18)

ترك حمزة شقيقه ليستحم ويرتاح وخرج من المنزل.. لم يحدد وجهته وهو يسير باتجاه قلب المدينة القريبة من القرية.. مشى ومشى كأنه يمشي في نومه ثم اصطدم برجلٍ على الرصيف.. بدأ الزجل بالصراخ فاستيقظ عقل حمزة من غفوته.. وراح يعمل بأقصى طاقته باحثًا عن طريقةٍ تُخلص شقيقه مما هو فيه.. جال بصره على جدران الأبنية ورأى لافتةً كُتِبَ عليها: (د. طاهر صالح اختصاصي الطب النفسي) ففكر حمزة مليًا ولكن لا خيار لديه فلا بد من استشارة أحدهم وربما يكون الطبيب أفضل شخص يمكن اللجوء إليه.

دخل العيادة فلم يجد أحدًا في الانتظار.. أخذت الممرضة المعلومات اللازمة لملء الملف ثم أذنت له بالدخول.

- صباح الخير دكتور.

- أهلاً وسهلاً بك.. كيف أستطيع مُساعدتك.

أجاب حمزة وهو في حيرته:

- قدمْتُ إليك يا سيدي لأُتني لا أعرف إلى أين أذهب.. ثقة مشاكل يمز بها أخي.. وهي ليست مؤذية.. لكنّها غير قانونية.. أنا خائفٌ عليه.. وخائفٌ منه أيضًا.. أظنُّ أنّه لم يعد سويًا.. عندما قرأتُ على اللافتة بأنك طبيب نفسي عرفتُ أنّك بالفعل من أحتاجه ليفسر ما يحدث معه.. ويدلّني على العلاج.

بدأ حمزة بالحديث عما رآه في ليلته المشؤومة.. وبدأت ملامح الطبيب تتغيّر شيئًا فشيئًا.. دُون المعلومات اللازمة وأغلق الدفتر.

- أريد بعض المعلومات عن العائلة لو سمحت.

لم يكن حمزة بحاجة للكثير من الإلحاح.. فهو بحاجة شبه مرضية إلى الكلام ولن يفوت هذه الفرصة من يده.. أخذ يتحدث ويتحدث حتى أفرغ كل ما في جعبته من هموم ومشكلات حالية وقديمة.. حتى كاد الطبيب يسجل ملاحظاته عن حالة حمزة الصحية في ملف خاص.

فكر الطبيب مليًا بما سمعه من هذا الزائر.. الذي لا يخطئ بأن يعذه مريضًا هو الآخر.. ولكن ليس إلى درجة أخيه.. لم يكن الوضع مطمئنًا.. وردّ الطبيب كل ما يحدث مع مازن إلى داء نفسي خطير سقاه الذهان.

«أيعقل هذا؟! أيمكن الذهان هو مرض أخي.. وهو ما يحوله إلى ذلك الوحش؟! يا له من مريض كبير باسم صغير.. ذهان! والله لو سمعت هذه الكلمة في مكان آخر لظننت أنها نوع من المجاملة!

ضحك الطبيب بهدوء على مرح حمزة رغم حياته المعقدة.. وقال:

- قد يكون من الأفضل أن أقابل المريض بنفسي كيلا أكون أحكامي على روايتك للأحداث.. وقد تكون ثقة جوانب أخرى في حياة أخيك لا تعرفها أنت.. ولم تكشف عنها تلك الليلة المطيرة المخيفة على حدود المقبرة.. أنا أحضر بحثًا لأقدمه للجامعة عن هذا المرض.. وسأستفيد من حالة أخيك في بحثي وأنا أقوم بعلاجه.. هلا أخبرتني بعض التفاصيل كي أتمكن من الوصول إلى مازن والتعريف عليه؟

- أجاب حمزة بالإيجاب.. وكتب عنوانَ المقبرة وهو يبالغ في وصف الرّعب الذي يصيب المرء وهو يذهب إليها بمفرده.. ويضحك الطبيب ليخفّف عنه.. وهو يقدر أنّ حمزة مجرّد فتى يافع رأى ما لم يكن ينبغي أن يراه.

خرج حمزة من العيادة مُرتاح البال.. فقد كان الحديث مع كلّ هذه الزّاحة بمثابة علاجٍ للتّشوّش الذي يسيطر عليه.

استيقظ مازن نشيطًا.. ارتدى ملابس العمل وانطلقَ باحثًا عن حمزة الذي طلب منه اصطحابه.. لم يكن يرغب في أن يُشاهد حمزة مكانَ عمله كيلا تهتزّ الصورة التي حاول أن يرسمها في خياله وخیال زينب عندما يشهد بؤس العمل في المقبرة وضجر الليل البطيء وهو يقوم بحراسة القبور.. لكنّ حمزة يرغب في هذه الزّيارة.. كي يسهر مع شقيقه ويشاركه عناءه.. كما يهدف حمزة من سهرته هذه.. أن يستشفّ شيئًا ممّا يحدث في عقل مازن ويدفعه لفعل ما يفعله في المقبرة.

تسارعت نبضات قلب حمزة.. كان قلقًا من أن يُكشف أمره.. وخائفًا على أخيه الذي كان ملاذه وهو الآن يعاني من مرضٍ عجيبٍ يحوِّله إلى شخصٍ آخر.

خرجا من المنزل تاركين ابتسامةً فرحٍ مرسومةً على وجه والدتهما.. ومع كلّ خطوةٍ راحت ضربات قلب حمزة تشتدّ.. وتوثره يتزايد؛ فكان سيرهما بطيئًا وصامتًا ولا صوتٌ إلا صوت خطوات أقدامهما على الأرض وصوت أنفاسهما تتسارع مع كلّ خطوةٍ تُنذر باقترابهما من المقبرة.. لم يكن مازن خائفًا.. لكنّه كان قلقًا من تحوّل

شخصيته في المقبرة دون أن يتمكن من السيطرة عليها.. لقد كان يلاحظ أنه يتغير.. ولم يكن يرفض التغيير أو يحاول التمسك بصورته القديمة.. كان ثائراً على نفسه كارهاً استسلامه وجبنة القديمين.. فابتكر في المقبرة الشخصية التي كان يبحث عنها ويتمناها لنفسه.. حاول حمزة أن يجد في صحبته لشقيقه فرصة لاكتشاف المكان.. فقد قاده الخوف في المرة الأولى للإسراع في خطواته هرباً من شبح يتخيله.. فلم يمتلك الجرأة لرفع عينيه نحو الأعلى.. نظر هذه المرة إلى تلك الأشجار المثشابة فلم ينقص رعب المشهد ولا خوف حمزة الطبيعي.. لكنه استعاد بمرأى أخيه شعوراً سابقاً بالأمان.. وخطوة خطوة بدأ يشعر بجمال المشهد.. تتنقل العصافير من شجرة إلى أخرى.. بينما تنذر خيوط الشمس بالانسحاب من بين الأغصان.. صورة كان مازن يناجيها دوماً.. فيقف وسط تلك الغابة التي تسبق المقبرة في وجودها.. وينظر إلى الأعلى بينما يزداد بريق عينيه كلما هب نسيم وحرك الأغصان.. كانت أصوات الطبيعة تدخل الظمأنينة إلى قلبه ليعاود سيره إلى مقبرته فتتغير شخصيته هناك ويقسو قلبه كقساوة منظر تلك القبور المتراففة.. فلا وجود للألوان في أرض الموت.. كل ما يمكن رؤيته هو أصناف من القبور التي توحى باختلاف بيئة ووضع موتائها.. وبعض النباتات المتناثرة هنا وهناك من أثر زيارة أحدهم.

وصلا إلى غرفته عند مدخل المقبرة.. حاول حمزة أن يُداري ارتباكاً ويخفي نظراته المثملّة بالعتب عن مازن.. وبدأ مازن بالحديث كي يكسر الخوف الذي يعتري أخاه اليافع:

- ها قد وصلنا.. هذه غرفتي التي أضغ أغراضي فيها.. وهذا مكان

عملي.

- إنه موحش.. كيف تستطيع تحمّل أعباء هذا العمل؟

- لا تشغل بالك فقد تعودت وانتهى الأمر.

- ألا تخاف في الليل وحدك.. هل تنام؟ لو كنت مكانك لبقيت
ساهرًا طوال الليل.. ربما أكون خير حارس لهذه القبور.

ضحك مازن على شقيقه الصغير الذي يحاول أن يُشئت انتباه
أخيه عما يُخطط له:

- أنا هنا للحراسة بالفعل لا للنوم.. لكنني لا أتجول طوال الليل
بين القبور.. هذا ليس ضروريًا فالقبور لا تتحرك.. لا يخرج سكانها
لاقتراف الموبقات.. والسمعة المخيفة التي تحيط بها تكفي لحمايتها
من لُصّ عابر أو مجرم شاذ.

فكر حمزة في سَرّه: هل أنت لُصّ عابر أم أنت مجرم شاذ؟؟

تابع مازن مسرورًا:

- لا تقلق سأرافك إلى المنزل بعد قليل.. يبدو أنك اكتفيت من
المكان ولن تكمل السهرة.

قال مازن ذلك فرحًا.. فهو لا يريد أن يُكرّر حمزة هذه الزيارة خوفًا
من أن يراه وهو في خضم إحدى المُحاكمات.. أو أن يراه وهو يبكي
وينادي باسم روان منتظرًا طيفها المتمتع عنه في الفترة الأخيرة.

أجاب حمزة كي يُطمئنه:

- أتمنى ذلك حقًا.. منظر تلك الغابة يُشعّرنِي بالغميان.. ولن أستطيع

السهر ولا النوم هنا.

ضحكا وكلّ منهما يُخفي عن الآخر ما يجول في رأسه.. مضى بعض الوقت واشتدّت حلقة الليل فاكتفى حمزة من البقاء وقَرّر العودة إلى المنزل.. رافقه مازن كما وعدة.. وفي الغابة الصغيرة سارا ببطء وصمت حتّى وصلا إلى المنزل.. ودّع مازن أخاه وعاد إلى مقبرته.. نعم يمكننا القول أنّها صارت مقبرته فاسمه أصبح مُرتبطًا بها واسمها أيضًا أصبح مَقروئًا بحقار قبورها مازن.

استقبلت الأم حمزة بفضول وقلق:

- أهلاً بني.. هل كل شيء على ما يُرام؟ وجهك شاحب جدًا.

- لا تقلقي أمي الأمور بخير ومازن أيضًا بخير.. إنّه يشعر بالحسرة على تركه للجامعة وهذا كل ما في الأمر فلا تقلقي.. يومًا ما سيعود فلتعقي بي.

كان حمزة يعتمد على الطبيب طاهر في قوله هذا.. وبدا واثقًا من كلامه فظهر الارتياح على وجه الأم وقالت:

- أرجوك لا تترك أخاك وحده.

- لن أتركه أبدًا.. سأنهي في هذه السنة دراستي الثانوية وألتحق بالجامعة.. سأبحث وقتها عن عملٍ أساعد من خلاله في شراء حاجيات البيت كي أخفّف عن أخي مازن.. وربما أقنعه بترك هذا العمل والالتحاق بجامعة أيضًا.

(19)

وقف الطبيب النفسي طاهر صالح في عيادته وسط المدينة..
نظر من الشباك الزجاجي الكبير الذي يطل على عقدة من الشوارع
المزدحمة المتقاطعة والتي تنظمها إشارات مرور.. تعلو أصوات
السيارات.. وتسيل جموع السائرين في جميع الاتجاهات.. استرسل
الطبيب مُراقبًا المارة وهو يفكر في مشكلة مازن النفسية الصعبة..
وفي البحث الذي يجريه عن حالة الذهان مع تلك الحالة الغريبة التي
ربما كان الذهان جانبًا منها ليس أكثر.. فما يُراود مازن في منامه كان
أشد تأثيرًا ومرصًا.. إنها عشيقته الشعواء.

عاد الطبيب إلى دفتر ملاحظاته.. لم يكن ربط هذين المرضين
مسبقًا في الطب النفسي.. ولا تبدو الحالة التي ستكون شاهدًا على
هذا الارتباط سهلة أو مضمونة التفسير.. هذا بالإضافة إلى مهمته
الأساسية المتمثلة في علاجه.. كيف سينتشل شخصًا من ضياعه
بعد أن تحوّل وتبدّل وبات حبيسًا للأوهام.. كيف يجعل إحدى
الشخصيتين تلغي الأخرى؟ وكم سيكون حجم الضرر الناتج عن هذا
الإلغاء على الشخصية الأصلية؟

ليس من السهل أن تكون مُنقذًا للآخرين.. لكنه طبيب أقسم على
شرف المهنة.. وتعهّد أمام الأخ المصدوم أن يعيد له أخاه.. يكفي
الأسرة ما عاثت منه في الماضي.

وضع الطبيب خطة للعمل تقوم على جعل المريض يدرك مرضه
ويؤمن به ليكون خلاصه.

لا يستطيع الطبيب أن يعتمد على أقوال حمزة وحدها في العلاج.. لهذا السبب ولغاية توخي الدقة في البحث الذي يعمل عليه كان لابد له من زيارة مازن في المقبرة معتمدًا على حيلة ما تسمح له بالتقرب منه ونيل ثقته.

في وقت متأخر من الليل انطلق إلى عنوان المقبرة دون أن يُخبر أحدًا..

ركن سيارته بالقرب من غرفة مازن ودخل بين القبور باحثًا عنه.. انتبه مازن إليه فأتجه نحوه وألقى التحية:
- سلام عليكم.

-وعليكم السلام.. هل أنت حارث هذه المقبرة؟
- نعم.. كيف يمكنني مساعدتك سيدي.

- اسمي فتحي.. أريد أن أبحث عن قبر جدي فهذه كانت وصية والدي الذي مات في الغربة.. وُلِدْتُ وعِشْتُ مُغْتَرِبًا مع أسرتي.. ولكن والدي أراد دومًا أن يزور قبر والده الذي لم يتمكن من وداعه عندما توفي.. ولم يعرف قبره.. مَرَّرَ لي أمنيته هذه وهو يموت.. وطلب أيضًا أن أنقل رفاته من البلاد البعيدة ليحضر تراب والده بعد أن أَسْتَدِلَّ على مكان القبر.

سحرتِ القصة مازن.. لا شك أن هذا الوالد كان حنونًا.. وكانت أخلاقه عالية حتى يذكره ابنه وهو على فراش الموت.. ويتمنى أن يحتضن ترابه وأن يختلط فيه.

استأذن مازن وذهب لإحضار بعض القهوة الساخنة.. عاد وأكمل

وهو يسكب له القهوة:

- قصّة جميلة يا فتحي.. إذا أتيت من الغربة حديثًا ها.

- هذا صحيح.. لماذا ترى قصّتي جميلة أيّها الشاب؟

أجابه مازن بما فكّر فيه.. وذكر له شيئًا من القسوة التي عاشها مع والده.. وكيف كان خبر موته مفرحًا للجميع.

كان الطبيب يعرف كلّ ذلك من خلال شرح حمزة المطوّل في العيادة.. لكنّ مازن أضاف عبارة لفتت انتباه الطبيب:

- لم ينل والدي ما يستحقّ من عقاب.. لم أتمكن من محاكمته حتّى الآن!

صمت الطبيب قليلاً وسأل: وهل ستجري محاكمة تعدّد فيها ما اقترف من ذنوبٍ بحقّك.. ثمّ ستتركه لعقاب ربّه الذي لا يظلم عباده؟

فردّ مازن بصوتٍ خفيض كأنّه يكلم نفسه: أنا أحاكم وأعاقب أولاً!

ارتسمت علامات الدهشة على وجه الطبيب.. فغيّر مازن الموضوع فورًا نادمًا على استرساله في الكلام:

- ما اسم جدّك يا سيّدي؟

- فتحي.. والدي أعطاني اسمه كي يبقى ذكره حاضرًا بيننا.

- لم يمزّ هذا الاسم في سجلاتٍ مقبرتي في الحقيقة.. ولكنني سأساعدك في البحث فربّما غفلت عنه.

- أشكرك يا مازن.. لن أنسى لك هذا المعروف.

- هذا واجبي يا سيدي.. لم لا نبحث سوياً.

بدأت الجلسة في المقبرة وبدأ مازن يتبادل أطراف الحديث مع الطبيب طاهر المتخفي باسم فتحي.. استمتع بالحديث معه فالطبيب يعرف جيداً الأسلوب الأمثل لجز مريض إلى استجواب لطيف دون أن يشعر هذا المريض بالطعم أو تخطر له فكرة الخديعة.

- من أين أنت يا مازن؟

- من هنا.

- هل كانت مهنة والدك حفر القبور حتى اتخذتها وظيفة لك؟ أنت شاب لطيف ويبدو أنك متعلم.. هل أنا مخطئ؟

- عن مهنة والدي فأنت مخطئ.. أمّا عن تعليمي فقد أصبت.. دخلت الجامعة ودرست علم النفس في السنة الأولى.. لكن ظروف الحياة أرغمتني على ترك الجامعة والبحث عن عمل.. ولم تسنح لي الفرصة لأحصل على عمل أفضل.

فكر الطبيب أن مازن يوظف ذكائه وقدراته للأسف بشكل خاطئ.. وحاول أن يفهم أكثر عن موضوع المحاكمة والعقاب.. فسأل:

- من خلال عملك في المقبرة وحفرك للقبور.. هل تعرف إذا كان الميت ينال عقابه في دنياه.. أم يؤجل إلى ما بعد الموت؟

أجاب مازن:

- إنه ينال جزءاً في دنياه.. ربما كانت سعادتنا بمرض والدي القاتل جزء من العقاب الذي يستحقه.. لكن جرائمه الكبرى تحتاج إلى

محاكمة أكبر.. كان ينبغي أن يُطعن.. وأن تُمزَّق أشلاؤه.

راقب الطبيب التماع عيني مازن وهو يتحدث عن المحاكمة..
ويستحضر هذه الصور الفظيعة.. فقال له:

- وماذا كنت ستفعل لو أعطيت الحق في إجراء المحاكمة؟

فاضت اللذة من وجه حفار القبور.. وعلث جبينه تغضنات
الحماس.. وتوسعت ابتسامته وهو يفكر في الطعنات الموجهة إلى
قلب أبيه.. وإلى ذراعيه اللتين أشبعته وأشبعتا أمه ضربًا.. لكنه
تكتم.. وخفف من اندفاعه كيلا يخطئ بالكلام الزائد مع هذا الغريب..
وقال:

- دعه لإله لا يظلم أبدًا.. لن أمتلك هذا الحق أبدًا.

قرأ الطبيب كل شيء في تعابير وملامح وجه مريضه.. واستعد
للذهاب.

ضحك مازن من ردة فعل فتحي على حديثه ثم قال مُبتسمًا:

- لا تخف مني.. أنا مجرد حفار قبور مسكين. ثم تابع بينما كان
الطبيب يمشي مبتعدًا: لم أشعر بالارتياح للحديث مع أحد قبل الآن..
خاصة هنا في وحشة هذه المقبرة.. شكرًا لحديثك معي فمُعظم
الناس الذين يأتون إلى هنا لا يهتمون بهذا الحفار البائس.

- لا تشكرني فأنا وحيد في هذا البلد.. مات والدي وترك لي وصيته
وها أنا هنا وحدي لا صديق لي ولا قريب.. أثمانع لو تسمح لي
بزيارتك كل يوم؟ فلم أستمتع بالحديث مع أحد أنا أيضًا منذ موت
والدي.

- بالتأكيد.. كنت سأطلب منك ذلك.

- سأزورك في الغد إذن.. ومن دون تفكير فأنا بحاجة إليك يا مازن في وحدتي.

- أهلاً بك في أي وقت.. سأكون بانتظارك للبحث عن قبر جدك علنا نصل إلى خيط ما.. ونكمل حديثنا.

- إلى اللقاء.

غادر فتحي المقبرة.. ركب سيارته المركونة قريباً وانطلق تاركاً مازن في نشوة لم يشعر بها من قبل.. ها قد بدأت ريح الصداقة تطرق بابه.. بدأ يشعر بالإنسانية من خلال حديثه مع فتحي.. نام هذه المرة ولم يفكر بالقبور وأصحابها.. كما لم يخرج لتفقد قبر روان مساءً.. نام في غرفته على أمل الحصول على صديق في هذا الوقت الصعب.

عاد الطبيب طاهر إلى عيادته.. زاره ثلاثة مرضى.. وفي استراحة الغداء ظهرًا تناول مفاتيحه وأقفل عيادته وانطلق راجعاً إلى منزله القريب من مركز المدينة.. كان أول ما قام به هو تدوين ما استنتجه من مقابلته الأولى لمازن.. وبعد ذلك أخذ هاتفه وبحث في جهات الاتصال عن رقم الدكتور المشرف على رسالة الدكتوراه التي يعمل عليها:

- مساء الخير دكتور.. كيف حالك؟

- أهلاً طاهر.. أين وصلت في البحث؟

- لقد وجدت ما أبحث عنه.

- هات ما عندك.. أخبرني.

- لدي حالة مثيرة في مراحل متقدمة من مرضين: ألزهايمر وحالة غريبه لم أجد لها تفسيرًا.. سأعمل أن أعالج صاحبها.. وأن تكون هذه الحالة موضوع بحثي إن وافقت دكتور.

- لا مانع عندي فهذه أطروحتك.. ولكن قبل أن تبدأ دعني أرى ما استخلصته من معلومات عن تلك الحالة والزجاء إرفاقها بخطة العلاج التي ستتبعها.

- حاضر دكتور لك ذلك.. سأنتهي دراسة الحالة وأخبرك بتفاصيلها.

- بالتوفيق.

- أشكر.

(20)

يومًا بعد يوم تطوّرت علاقةُ فتحي» الافتراضي» ومازن.. ففي كل يوم كان يزداد قلب مازن تعلقًا به وشوقًا للحديث معه.. وفي كل يوم كان فتحي يعود إلى حياته كطبيب يعدّ بحثًا عن حالة مازن.. ويُسجل ما لاحظته في هذه الجلسة كي ينهي بحثه بكفاءة ويدرس المرض على أرض الواقع.

- آسف يا صديقي لأنني لم أستطع مُساعدتك على إيجاد قبر جدك.. فلا وجود لهذا الاسم في مقبرتي.. قد تكون مُخطئًا في اسم المقبرة.

- لا عليك صديقي.. تكفيني صداقتك.. وحديثي اليومي معك.. سأراجع معلوماتي عن اسم المقبرة وأعود للبحث.

- أتدري أنك أدخلت الفرحة إلى قلبي.. ولا أدري إن كنت سأقوى على بُعدك حين تُسافر.

- لا تقلق من هذا.. فقد قررت أن أستقر هنا.. لا أحد لي في الغربة وهنا وجدتك صديقًا وأخًا.

- الحمد لله.. لقد زال خوفي من فقدانك.

شعر بغضةٍ كادَتْ تخنقه.. كيف سيُخفي عن مازن الحقيقة وكيف سيُخبره بأن وجود الصديق كان جزءًا من خطة العلاج التي سيطرحها في رسالته.

كان تعلق مازن بفتحي سبيلًا للخلاص من حديقته مع الأموات..

كان يحدثه عن حياته وعن مُعاناته مع والده ومع المجتمع من بعده.. تحدث عن حبيبته روان.. وأضاف إلى قصته معها أحداثًا وهمية ألفها في خياله.. كما تحدث عن حمزة وزينب.. وعن والدته التي سحقتها الحياة.. وبالمقابل ألف فتحي حكاية عن حياته التي لا تخلو من المُعاناة فالغربة قاسية.. وأوهمه بأنهما متشابهان وبينهما نوع من وحدة الحال.. الأمر الذي أسعد مازن.. وكان يحكي لأمه عن هذا الصديق الجديد ويعدد النقاط المشتركة بينهما باندفاع وحماس.. وكان الطبيب طاهر يشعر بالذنب لأنه دون قصدٍ منه قد تلاعب بمشاعر هذا الشاب.. وهو يعلم أكثر من غيره.. لأنه مختص بالآفات النفسية.. أن مازن لم يعيش يومًا من دون خذلان ولم يشعر يومًا بالظلمانية.

بدأت الابتسامة تعود إلى وجه مازن مع الوقت شيئًا فشيئًا.. ولاحظ حمزة وزينب ووالدته هذه التغيرات فاسترخت أجواء البيت التي كانت مُستنفرة.. كما عم السرور فيه.. تواصل حمزة مع الطبيب فأخبره بزياراته المُتكررة لمازن وأخبره بأنه لن يأخذ المال مقابل العلاج فمازن صارَ صديقه.. فرح حمزة بهذا الخبر وبدأ يراقب التغيرات النفسية التي يمر بها شقيقه.. مع الأيام استطاع فتحي أن يسحب من مازن كلامًا يوحي له بالجريمة التي أخبره بها حمزة والتي كانت سببًا لزياراته له.

- ألم تخف يا رجل في بداية عملك بين القبور.. كم أتيت إليك هنا وسهرنا ولا أزال أخاف من البقاء وحدي.

- انتابني الخوف في البداية.. ولكن الأموات صاروا أبناء رعيتي.

- أنت تُخيفني بكلامك مازن.. بدأت أشعرُ بوجودِ شخصٍ خلفي.. يا إلهي!

- لا تقلق.. الأمرُ هينٌ فعندما تكون صاحبَ المحكمة وسيدها لن يُخيفكَ الأموات.. بل أنت من تستطيع مُعاقبتهم.

- عن أي محكمةٍ تتحدّث.. وما فائدةُ العقابِ للأموات؟

- كلُّ شيءٍ يحدث لسببٍ ما.. فدرب حياتي المتعرج الذي نقلني من محطةٍ إلى محطةٍ كان له غايةٌ في النهاية.. قد تكون هذه الغاية هي في عملي هنا.. فأنا أشعرُ بأنني أملك الحقَّ في محاكمة من كان من الموتى ظالماً.. ولدي الصلاحية والقدرة على معاقبتهم أيضاً!

لمعت عينا مازن ببريق الشهوة القديمة التي كانت تتضاءل منذ تعرّف على صديقه الجديد.. لكّته خشي عليه من الخوف والنفور.. فتدارك على عجل زلّة لسانه وقال مُحاولاً صرف انتباهه فتحي عمّا قاله:

- ليس من السهل دون شك أن تعيش بين الأموات وحدك.. كان عليّ أن أجِدَ طريقةً لتحلّ هذا الوضع.. فرحّثُ أتحدّث معهم حيناً وأضحك معهم حيناً آخر وأحياناً أعاقبهم.

- أنت سٹصیبني بالجنون.. هلا تُحدّثني أكثر عن فكرة المحاكمة والعقاب؟

لم يجد مازن سبباً لخوف فتحي.. فقال له بتلقائية وبساطة:

- مَنْ سيأتي مع الرّجل الميّت إلى الدفن؟ أهله وأبناؤه دون شك.. سيتحدّثون عنه فيما بينهم.. سيبكون أو يشكون أو يفرحون كما

فعلت أنا دون مواردٍ.. أستطيع أن أعرف من كل هذا إذا كان الميت رجلاً صالحاً أو فاسداً؟ أجمع البيانات في عقلي.. وأحياناً ألجأ إلى تدوينها بعدما أصبحت أنسى مؤخرًا.

استجوبه فتحي بجذية:

- وبعد ذلك؟

- ليس الكهبر.. بعد ذلك أعاقبه بإزالة الأزهار والنباتات الخضراء الجميلة من فوق القبر وأوبخ الميت.. هذا مضحك أليس كذلك!

بضحكة خبيثة تابع مازن كلامه:

- لا عليك.. فليس من الضروري أن يعرف الناس ما أفعله.. وما أنا مكلف بفعله.

- آه.. أرجوك توقف بدأت أشعر بالضجر من كل هذا.

أراد الطبيب أن يُشثت انتباه مازن عن الشك به كي يستكمل الجلسات حتى تمام البحث الذي سينال من خلاله شهادة الدكتوراه.

عاد إلى بيته وأفرغ ما في جعبته من أحاديث وقارنها مع حديث حمزة عن تلك الحادثة:

- أعتقد أنني بدأت أفهم ما يحدث.. لكن هل هذا يُعقل! إنه حفار القبور.. الحاكم الأعلى في هذه المقبرة.. يجري جلسات الحكم.. وينتقم من الجثث باسم السلطة العليا.. ما هذا الذهان المستحوذ.. يا له من مرض ويا لك من بائس قست عليك الحياة لتقسو على الأموات.

استمرت الجلسات واسترسل مازن بالحديث عن نفسه وهذا ما كان د. طاهر يطمح إليه.. باتت أطروحته غنية بشهادة مشرفه الذي شجعه على البحث.. وعلى استئارة مريضه ليصل بالمرض إلى أقصى درجاته.. قبل الانتقال إلى المشفى الملحق بالسجن.. لتبدأ رحلة العلاج الطويل بما تقتضيه الحالة والمرحلة التي وصل إليها المريض.. لم يبق إلا القليل من المعلومات التي يجب أن يحصل الطبيب عليها.. بهمة حاضرة كان يحرص طاهر على توطيد علاقته بمازن ليتمكن من إكمال بحثه.. ومن ثم معالجته والاحتفاظ به كصديق يعرف جيدًا ذكاه وطيب قلبه وبؤسه ومُعاناته.. وكان طاهر يجد في مازن أخًا أصغر يتمنى أن ينقذه ويحميه.. وقد توزط بعاطفته مع هذه الحالة وهذا من الأخطاء التي يشدد الأطباء -وهو واحد منهم- على اجتنابها.. كان يعلم ذلك لكنه يحاول أن يُسيطر على مشاعره ليصل بالمريض إلى السلامة أولًا.. تاركًا شكل العلاقة التي ستكون بعد ذلك للمستقبل.

شعر في كثير من المرات بتأنيب الضمير لآئه يخدعه.. لكنه في كل مرة يكتشف شيئًا جديدًا أخفاه مازن عنه.. وكان يبزر لمريضه هذا الكتمان لما يعرفه عن حالته النفسية وما فيها من تعقيد.

بدأت المرحلة الأخيرة في رحلة العلاج بالإيهام.. سيخبر الطبيب مريضه قريبًا بكل شيء.. لكن عليه قبل ذلك أن يشهد إحدى المحاكمات بنفسه.. وعليه من أجل ذلك الحصول على الثقة الكاملة من قبل مازن كي يكشف عن شخصيته السرية أمامه.

في هذا الوقت بدأ الشك يغرس بذوره في قلب مازن.. فهو لم يكن

غيبًا ولا ساذجًا.. وبدأ أنفه يشتم رائحة فضول صديقه الكبير لمعرفة المزيد عن عالم الموتى والقبور.. والمحاكمات والعقوبات.

كما بدأت رحلته مع وسوسة معشوقته ليمضي قدمًا إلى ما يحتاج تفكيره الآن.

حاول مازن البحث عن قبر الجد المفقود راغبًا في إدخال البهجة إلى قلب صديقه بتحقيق وصية والده.. لم يجد قبرًا لهذا الاسم في كل المقابر التي بحث فيها مازن.. فبدأ يشك في كل المعلومات التي أعطاه إياها فتحي الذي لم يعد يذكر قبر جده ولا وصية والده.. وبات جل حديعه استفسارات عن أحواله وعن نشاطاته في هذه المقبرة.. كآئه يحقق مع مازن.. «ماذا؟! مُحقق؟! هل كشف أحدهم أمري؟ هل شاهد أحد محكمتي؟»

قَرَّر مازن في اليوم التالي استفزاز فتحي بالكلام وإثارة رغبته لمعرفة المزيد عن حياته مُحاولًا بذلك استكناه ما يخفيه.. فسأله:

- أتعلم يا فتحي أنني لم أقوَ على النوم البارحة.

- لماذا يا صديقي؟

- أشعر بالذنب لأنني لم أساعدك في بحثك عن قبر جدك.

ظهرت على وجه فتحي علامات الارتباك.. وكان مازن يقتنص رده بلهفة.

- لا عليك صديقي.. أعلم أن البحث عن قبر قديم أمر صعب.. قد تتخرب الشواهد وتبلى الحروف المرسومة عليها بفعل الزمن.. كما تستثمر القبور القديمة لضم موتى جدد.. وقد طلبت من أشخاص

لديهم الخبرة في هذا الأمر أن يعرفوا لي ماذا حل بقبر جدي..
لم يقتنع مازن كثيرًا.. مع أنه لم يجد ثغرة في حديث فتحي..
كلامه صحيح لكن ارتبأكه غير مفهوم.. عزم مازن على كشف اللغز..
فقال:

-لقد أرحت فؤادي الآن.. إذا ماذا ستفعل ليلاً.

-سأنام يا رجل.. ألا تعلم أنني أنام باكراً.

-ستفوت عليك أمراً ممتعاً هذه الليلة.

-حقاً.. قل لي ما هو وأنا سأقزر إن كنت سأسهر أم لا.

-سأقيم محاكمة لأحد الموتى دفنثة يوم أمس.. كان ظالماً
وقاسياً.. مثل والدي! سترى أنني عادل في حكمي ولن ينال أحد إلا
ما يستحق.

-محاكمة للأموات.. تقول لي هذا دائماً ولم أستطع أن أفهمك يوماً..
ماذا تقصد؟

-شيء خاص بمملكتي.. بهذه المقبرة.

-ما هو؟

استمر الطبيب بالأسئلة فشعر مازن بالغرابة.. وانتابته بعض
الخواطر:

« ثرى هل كشف أمري؟ هل رأي أحدهم وأبلغ عني؟ قد يكون
فتحي هذا مُحققاً.. علي التأكد كي لا أخسر صديقاً بفعل الأوهام.»

سأله الطبيب:

- ما بك.. بماذا تفكر؟

مع كل سؤال وجواب كانت الشَّعْماء تفعل فعلتها في الإيقاع بـمازن أكثر.. تحاول جزه إلى افتعالٍ ما هو أقسى وأصعب من مُحَاكِمَةِ الجُثث.. فأجاب بذكاءٍ ودون تفكير:

- أرغب أن أنا.. أنا أشعر بالثَّعب.

- لا عليك سنكمل حديثنا غدا ولا بد أن تُجيبني على كل أسئلتني؛ فعالم القبور مثيرٌ وغريب.. وأنا أفكر بأهمية ما تقوم به في المحاكمات.. وأرغب بالفعل أن أشاهد ذلك.. هذا إذا لم تكن تخدعني بهذه القصة أصلاً.

- وهل ستبقى صديقي إذا عرفت عني أسرارًا قد يراها البعض مخيفة؟

- لا شيء يمكنه أن يؤثر على صداقتنا.. نحن شركاء في كل شيء.

- نعم معك حق.. وصداقتنا أقوى من كل شيء.

قال مازن ذلك دون أن ينفي شكوكه نهائياً.. وقَرَّر بالفعل أن يُشرك فتحي في إحدى مُحَاكِمَاتِهِ.. ربّما وضعه القدر في طريقه حتّى يكون خلقاً له.. ويدير شؤونَ المقبرة وجلساتِ المُحاكمة إذا قرَّر هو أن يبتعد قليلاً أو أن يعودَ لجامعته؟

نهض فتحي ونهض مازن خلفه.. سارَ نحو الغابة إلا أن مازن لم يخلد للنوم بل لحق به بخطواتٍ مدروسةٍ ودون أن يُصدرَ أي صوت..

المقبرة مملكته وهو بالتأكيد يعرف كل تفاصيلها.. وصل فتحي إلى منطقة مأهولة من الطرف الثاني للغابة.. أخرج مفاتيحه وركب سيارته.. كانت سيارته فارغة لامعة لا خدش فيها.. لم يعرف مازن أنه يقتني سيارة.. لكن رجلاً عمل في الغربية وعاد وهو في الأربعين من عمره لن يكون فقيرًا على أقل تقدير.

قاد الطبيب سيارته ببطء شديد.. تمكن مازن من اللحاق به حتى حدود الأحياء السكنية.. وهناك استقل سيارة أجرة ورائه وأوقفها عندما توقف.. نظر للأعلى فوجد لافتة «عيادة الطبيب طاهر صالح.. اختصاصي في الأمراض النفسية»

أخرج حقيبته من السيارة وأغلق الباب ودخل إلى البناء.. راقبه مازن من بعيد وهو يدخل إلى العيادة.. وسأل نفسه: «هل هو مريض؟».. ثم انتظر خارج البناء لمدة طويلة ثقارب الساعتين دون أن يضجر.. فهو معتاد على الانتظار والضميت.. رأى فتحي خارجاً من البناء بتعجل.. حاملاً حقيبته ذاتها وانطلق بسيارته بعيداً.

دخل مازن إلى العيادة.. وقال للممرضة التي كانت تستعد للخروج أيضاً:

- مساء الخير.. هل تمكنتي مُقابلة الطبيب طاهر؟

- أعتذر سيدي.. فقد خرج الآن من العيادة.. هل أسجل لك موعداً في الغد؟

- أكان من خرج قبل دقيقة مع حقيبته السوداء هو الطبيب طاهر؟!

- نعم يا سيدي.. تبدو هذه زيارتك الأولى إلينا.

- صحيح.. هذه هي الزيارة الأولى.. لم تسبق لي مُقابلة الطبيب طاهر قبل الآن.. سأتي في وقتٍ لاحقٍ.

- تستطيع القدوم في فترة بعد الظُّهر.. فالطبيب في هذه الأيام يعمل على بحثه في الجامعة ولا يفتح العيادة صباحاً.

خرج مازن من العيادة بينما تنقذف الأسئلة في رأسه كالْحَمَمِ البركانية بقوة الصدمة والخذلان والخيبة!

مضى إلى المقبرة والحسرة تملأ قلبه.. صديقه الوحيد الذي عوض له أحزان الماضي وهون عليه مشقة الحياة قد خذله بالكذب.. ثرى ما غاية طبيبٍ نفسي في إقامة علاقةٍ مع حقّار قبوري.. هل كان كل ما عشته معه كاذباً؟ المشاعر.. الضحكات.. التسالي والفسامرات بيننا.. هل كان كل شيءٍ وهمًا؟ ربّما تكون قصصه كذبة.

لم يكن يخطط لِمَا سيفعله ولكنّ الفكرة عصفت ذهنه.. أعجب بها وخطّط لتنفيذها فاستحضر كلّ طاقته وأحضر أدواته وبدأ التنفيذ.. جاء فتحي ليلاً إليه كالعادة.. ومثل كلّ مرّة افتتح مازن جلستهما بكأس من القهوة.. فقد كان ينتظره دوماً في هذا الوقت ليشربا القهوة معاً.. كان فتحي يتصرّف بشكلٍ طبيعيّ وكان مازن يترصد له ويفكر مطوّلاً في كلّ كلمةٍ ينطق بها.. همّ فتحي بالذهاب فاستوقفته كلمات مازن:

- فتحي.. أحتاجك الليلة أن تسهر برفقتي.. أتمنى ألا تخذلني يا صديقي.

- تحتاجني؟ لماذا أشعر بالحزن في صوتك؟

- لا أدري ولكن أعتقد أن النهاية اقتربت وأريدك أن تكون بجانبى.
شعر مازن بالتماع عيني الطبيب.. كأنه عمر أخيرًا على ضالته ثم
قال:

- لا تقلق سأكون هنا غدًا.

انصرف فتحي تاركًا مازن يبدأ بالتحضير ليلته.

في مساء اليوم التالي كان كل شيء جاهزًا.. جلسة الشهر والسمر
التي حضر لها مازن.. ارتدى ملابسه النظيفة وسرح شعره إلا أن
العطر لم يكن موجودًا في حياته.. فالعطر لتلك الطبقة التي يمكنها
حرق بعض المال في متاجر الزينة والعطور.. دقائق قلبه تتسارع
ويقينه يكبر في أن هذه السهرة ستكون جلستهما الأخيرة.. وصل
فتحي متأثقا يصطحب فضوله الواضح وأسئلته الغزيرة.. ألقى
الثحية وجلس:

- ما هذا يا مازن؟ لقد فاجأني بما جهزت لسهرتنا.. لم أكن أعلم أن
ضيافة الليل رائعة هكذا.

ضحك مازن وقال:

- ستختلف الأمور علينا بالتأكيد.. فالأموات ينهضون في الليل وقد
ساعدوني في تجهيز سفرتي.

أبدى فتحي خوفًا شديدًا وقال:

- هل ينهض الأموات حقًا؟

- بالطبع فقد أخبرتك عن هذا مرارًا ولكنك لم تصدقني لذلك

دعوئك ليلاً.

- أصدقني القول أرجوك ولا تكذب علي.. ما تقوله صحيح؟

- لقد بدا الرعب على وجهك يا رجل.. ألا تحتمل المزاح؟

ضحك فتحي ضحكة باردة ثم قال:

- لا عليك سأهدأ بعد قليل.

- ما رأيك بأن تشهد إحدى محاكماتي الليلة؟

- محاكمة؟ ما بك؟ أنت تفقدني صوابي!

نهض مسرعاً وطلب من فتحي اللحاق به.. لم يكن أمام الطبيب خيار.. لقد كان جلّ اهتمامه بعد أن يجمع ما يكفي من المعلومات عن حالة مازن المرضية وينهي بحثه.. أن ينقل مريضه العزيز إلى شخصيته الاجتماعية.. وأن يُبعده عن المقبرة وعن أشباحها.

وصل الصديقان إلى مكان في طرف المقبرة.. بدأ قلب فتحي ينبض خوفاً ممّا يراه.. قبر مفتوح ولا وجود لجثة فيه.

- ما هذا مازن؟ لِمَا نحن هنا؟

- ألم أقل لك أنك شاهد على محاكمتي الليلة؟

- نعم.

- إذا هيا.. لنبدأ.

- وكيف نبدأ؟

انتظرني هنا أرجوك.. سأعود حالاً.

في هذه اللحظة بدأ الخوف يتسلل إلى قلب فتحي.. وبدأت قطرات العرق تتصبب من جسده.. ظلام حالك وأصوات تُنذر بالموت.. أصوات احتكاك أوراق الأشجار كأن يُعيز الدُعر في قلبه.. التفت حوله فلم يرَ أثرًا لـمازن.. جلس على الأرض أمام القبر المفتوح مُنتظرًا الخلاص.. خلاص حكايته مع مريضه.

في تلك الأثناء كان مازن أمام سيارة فتحي.. يتفحصها ويدور حولها ويفكر في طريقة للانتقام.. كانت الشعءاء توسوش له بما يمكنه فعله وما يمكنها مُساعدته في القيام به.. أخذ أداته الحادة وبدأ بعطب الإطارات جميعها.. انتظر قليلًا تاركًا فتحي وسط المقبرة.. وما إن حان الوقت؛ ترك السيارة وعاد مُتسللاً إلى موقعه.

بقي يراقب الطبيب إلى أن نفذ صبره.. قام ونادى مازن دون أن يجيبه أحد.. قرر العودة إلى الغرفة فلم يجده هناك.. كان مازن ينتظر فريسته قرب السيارة.. لم يكن وحيدًا؛ فقد كانت الشعءاء تمده بالقوة الجلد.

ها قد أتى الطبيب طاهر.. وصل سيارته وفتح بابها راغبًا في مُغادرة المكان.. كان الخوف قد وجد من جسده مُستقرًا.. يداه ترتجفان ونبضات قلبه تتسارع.. وقبل أن يضع مفاتيحه في العربة كانت يد مازن ترسم أثرها على زجاج نافذته.. ابتسم الطبيب ابتسامة صفراء وخرج من عربته:

- أين كنت يا رجل؟ لقد تأخرت.. بحث عنك في كل مكان.

- أخبرتك.. كنت أحضر لمحاكمتي.. انظر ماذا فعلت بعجلات

سيارتك.. لن تتمكن من الهرب اليوم.. الآن ستكون أنت من أحاكم..
ستكون الشاهد والضحية.

ارتجف قلب طاهر واصفرّت ملامحه:

- هل جئنت؟ لماذا ستقتلني؟ أنا لم أفعل لك شيئاً سيئاً.

- بل فعلت.. أنت كذبت عليّ وخنّتي.. عشت أوهاماً حقيقية
تختلف عن أوهام المقبرة بسببك.. كنت حقلاً لتجاربك لتستطيع
إكمال بحثك دون أن تأبه بي وبمشاعري.. أنت طبيب سيء؛ لم يكن
المريض هدفك.. أنت أناني.

- لا تقل هذا يا مازن فلو كان الأمر كذلك لما جئت إليك الآن.

- أتيت لتروي فضولك وتجذّ تفسيراً لما أقوم به.. انتهى الكلام أيها
الطبيب وحن وقت المحاكمة.

- مازن أرجوك فكر قبل أن تنهّور.. لن تمرّ فعلتك من دون عقاب..
نستطيع أن نجد حلاً لكل شيء.. سأساعدك على استعادة حياتك.

لكن مازن الذي أصبح خاضعاً كلياً لشخصيته الغيبية كان مقتنعاً
بأن الطبيب ظالم وكاذب.. وأنه يستحق أن يعيش أسوأ عقاب.

وبلمحة عين استلّ فأسه الحادة وبدأ يطعن صديقه.. كانت دموعه
تنهمز على خديه.. بينما تمسك يداؤه بالفأس.. ومع كل طعنة كان
قوتها تزداد:

- طعنة لصديقي اتخذته في طريق الخطأ.. طعنة لطبيب خان قسّمه
ليجعل من مريضه فأر تجارب.

صرخاٹ الطیب أحرقت قلبه؛ فلا يمكنه نكران حبه له.. ولكن
الخدلان كان قاسيًا ولم يكن بوسعه إلا أن يُحاكمه.. جلس قُبالة
بعد أن انتهت مقاومة جسده للموت واستبساله من أجل البقاء.. كان
مازن مُنهكا يتصبّب منه العرق وتتسارع دقات قلبه.

- ها قد انتهيت.. القتل ليس صعبًا لمن يستحقّه.

سحب جثة الطيب وأنزلها داخل القبر الذي حفره في الصباح.. ثم
ودّع صديقه وردم فوقه الثراب وكأّن شيئًا لم يكن.. ودون أن يُغيّر
عادته ذهب إلى منزله ودخل إلى الحمام.. فتح صنوبر الماء على
جسده قد أعيته القسوة ونالت منه ليبدأ رحلته مع الأحياء.

يُتبع..